حِينَ يَغَارُ المِشْمِشُ

رِوَايَة

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي

٨١٣ / ٩٠٥٦٣
ق ٢٦٩
القاضي ، رافد حميد فرج
حين يغار المشمش / رافد حميد فرج القاضي
ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٦ .
١٧٩ ص ؛ ١٤ × ٢١ سم .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .
رقم الإيداع
١٩٢٥ / ٢٠٢٦
المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

ISBN : 978-9922-8049-7-2

هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤ / ٠٧٨٧١٩٧٨٥٢٠
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

حين يغار المشمش

رافد حميد فرج القاضي

2026

رواية

الأهداء

إلى القلوبِ التي تعلّمت الصمت وعرفت أن الحبَّ أعمقُ من أن يُقال...

إلى العيونِ التي ترى ما لا يُرى، وتحفظ الحكايات في ظلِّ الغياب...

إلى الذين مرّوا في الروح، فما غادروا يومًا، وتركوا أثرًا لا يمحوه الزمن...

إلى حبٍّ لم يكتمل، لكنه بقي حيًّا... رغم كلِّ شيء...

هذه الحكاية لكم...حيث لا يُروى الشعور، بل يُعاش وحين يغار المشمش...تُزهرُ الروحُ بصمت.

أهدي لكم روايتي « حين يعار المشمش ».

وَمضَة

أحبَبنَا بِصَمتٍ

فَأضَاعَنا الصمتُ...

أوّل زهرة

حين يبدأ القلب

دقّاته الأولى

كانت دار أدم تتوسّط قرية فرج كما لو أنّها خُلقت لتُرى من كل الجهات، لا لتختبئ ، لم يكن بيتهم الأكبر، ولا الأجمل، ولا الأكثر فخامة، لكنه كان يقف في قلب القرية تمامًا، كقلب لا يمكن تحريكه دون أن تتوقف الدورة بأكملها ، ومن أي درب دخلت القرية، كان لا بدّ أن تقع عيناك على دارهم، ولو لم يكن سوى مرور ظلّها بين البيوت.

البيت نفسه كان عادياً في البناء : جدران حجرية، سقف منخفض قليل الانحدار، نوافذ خشبية تتصبغ باللون الأزرق الباهت، وأبواب مصنوعة من خشب صلب، عتيق، له رائحة الزمن لكنه كان يحتضن شيئًا لم يكن موجودًا في البيوت الأخرى شيءٌ حي، يتنفس، ويراقب : شجرة مشمش واحدة، واقفة في منتصف الفناء منذ ثمانية عشر عامًا تقريبًا، نفس عمر أدم.

لا سور يحجبها، ولا جدار يسترها، كأنها اختارت العراء طوعًا، أو كأنها لم تعرف يوماً معنى الاختباء ولم يكن في الأمر تحديًا

للشجرة، بل شعورًا غامضًا يهمس لكل من يراها : « أنا هنا أرى كل شيء، وأعلم أكثر مما تظن »

زرعها والده، الحاج محمد، بيده يوم عاد من المدينة متعبًا، بثياب مغبرة، وعينين أثقلهما الطريق، حفر حفرة صغيرة، وضع الغرسة بحذرٍ بالغ، وكأن كل حركة كانت صلاة أو عهدًا : سلمها للأرض كما يسلم شخصًا عزيزًا إلى العالم ، يومها لم يقل شيئًا طويلًا فقط ابتسم، ومسح التراب عن يديه، وقال: بعض الأشجار لا تُزرع للثمر... تُزرع كي تذكّرنا بأننا أحياء.

آدم لم يفهم حينها ، كان طفلًا يرى الأشياء بما تعطيه فورًا : ظل ثمر، لعب ولم يكن يعرف أن الزرع يمكن أن يكون درسًا في الحياة أو أن الشجرة يمكن أن تكون مرآة للمشاعر والانتظار وبعد ثمانية عشر عامًا، يقف أدم أمامها كل صباح، وكأنه يقف أمام مرآة، لا تعكس وجهه، بل أسئلته، ضحكاته المكتومة، أحلامه الصغيرة وحتى أحزانه التي لا يعرف كيف يسميها.

كانت شجرة غريبة؛ لا تشبه الأشجار الأخرى في القرية، التي تنتظر الربيع بهدوء، ثم تلبس أوراقها، تزهر، ثمرها، وتختفي ، هذه الشجرة كانت تستعجل، كأنها تخشى أن يفوتها شيء ، تزهر قبل أن تعرف الورق، تتفتح أزهارها البيضاء على جسد عاري بلا

ظل، بلا حماية، وكأنها تقول للعالم : « الجمال لا ينتظر اكتمالًا بل يُولد في اللحظة نفسها »

الجذع الجوزي يتغير لونه عند تفتح الأزهار، يلين، يكتسي بخفة وردية، وكأن الشجرة ترتدي فستان فرح عابر، قصير العمر، يبهت بسرعة، كأنها لا تثق بما لبست ، أدم يعرف هذا التحوّل بدقة يحفظ توقيته أكثر مما يحفظ مواعيد الامتحانات ، يقف أمامها حقيبته على كتفه، دفتر الرياضيات مفتوح في ذهنه على مسائل لا تنتهي، لكنه لا يراها بعينه، يرى وجودها، حركتها، إحساسها بالغد، كأنها تعرف ما لا يعرفه هو بعد.

في ذلك العام الأخير من الإعدادية، تغيّر شيء ما ، لم تعد الشجرة مجرد شجرة ، صار يشعر بأنها تراقبه، ليست مراقبة حقيقية، بل إحساس خفيف، وخزة في القلب، كأن أحدًا ما يفكر به في اللحظة نفسها، وأنها تعرفه أكثر من أي شخص آخر.

يُمرّر يده على جذعها البارد شتاءً والدافئ صيفًا، يستحضر كلمات أبيه الحاج محمد : « بعض الأشجار تُزرع لتذكّرك بأنك حي... » لكن كيف...؟

ومتى...؟

وبأي ثمن...؟

في القرية، يختلف الناس حولها : من يراها مباركة، من يراها نذيرًا ومن يكتفي بالقول : « شجرة، وتاليها تموت مثل غيرها »

أدم لم يرها كذلك ، كان يشعر أنها تشبهه : تزهر قبل الاكتمال تعطي قبل أن تُمسك، تخاف من الماء الكثير كما يخاف هو من الكلمات الزائدة ، كان يعرف عنها أمرًا لا يعرفه كثيرون : إذا سُقيت أكثر مما تحتمل تموت، وإذا تُركت عطشى تموت أيضًا وكأن حياتها معلقة على حد دقيق، غير مرئي، غير مفهوم.

وفي صباح من تلك الصباحات، بينما كان ادم يقف أمامها كعادته لمح رفل أول مرة قرب النهر ، لم يكن لقاءً مقصودًا، ولم يكن حدثًا كبيرًا، مجرد مرور عابر، نظرة سريعة، ظل فتاة انعكس على الماء، ثم اختفى ، لكن شيئًا ما انكسر داخله، أو ربما بدأ بالتشكّل ، عاد ببصره إلى الشجرة، وشعر بفكرة غريبة، غير منطقية، لكنها واضحة كالشمس : المشمش سيغار.

لم يعرف لماذا خطر له ذلك ، لم تكن الشجرة تغار، ولم يكن الحب قد بدأ بعد، لكن قلبه، الذي تعلّم من الشجرة أكثر مما تعلّم من الناس، فهم قبل أن يُفهم.

وفي ذلك اليوم، وهو يغادر الدار، التفتَ إليها مرّةً أخيرة ، لم يكن التفاتاً عابراً يُؤدّى بدافع العادة، بل كان وقفةً كاملةً للروح، كأن الزمن نفسه توقّف ليمنحه فرصةَ النظر الأخيرة ،كانت الدار واقفةً كما عرفها دائماً، لا تتغيّر، لا تنحني، لا تُشيح بوجهها عن أحد جدرانها الطينية التي مسّتها شمسُ القرية آلاف المرّات بدت كأنها تحتفظ بحرارة أعوامٍ لم تنطفئ، وسقفها الذي شهد ضحكاته الأولى ما يزال مائلاً قليلاً، كما لو أنّه ينصت.

كانت مزهرةً رغم العراء، عاريةً رغم امتلائها بالحكايات، متقدّمةً على ظلّها بخطوة، كأنها لا تقبل أن تكون تابعةً لشيء، حتى للضوء نفسه ، في تلك اللحظة شعر أنّها ليست بيتاً من حجر بل كائناً حيّاً يعرفه ويعرف خُطاه ، النوافذ لم تكن مجرّد فتحاتٍ في الجدار؛ كانت عيوناً تحفظ صوره طفلاً يركض، فتىً يحلم وشاباً يتدرّب على الصبر ، الباب الخشبيّ، الذي صريره كان يُزعجه قديماً، بدا اليوم صوتاً حنوناً يحاول أن يقول له : « تذكّر » تذكّر ادم والده الحاج محمد عندما كان واقفاً في فناء الدار، عند شجرة النخيل التي كانت أكبر منهما معاً تذكّر صوته العميق وهو يقول : « الحياة ليست أن تبقى هنا إلى الأبد، بل أن تخرج وأنت تحمل هذا المكان فيك » يومها لم يفهم ادم معنى أن يحمل

الإنسان بيتاً في صدره، لكنّه اليوم كان يشعر بثقلٍ دافئٍ في قلبه كأن الطين تحوّل إلى نبض.

الريح مرّت بين الجدران بخفّة، فحرّكت أطراف الستارة القديمة فبدت كيدٍ تلوّح له ، لم تكن الدار تمنعه من الرحيل، ولم تكن تدفعه إليه؛ كانت فقط تقف، شاهدةً ومحايدةً، كما تقف الأشجار حين يهاجر الطير ، ومع ذلك، كان في صمتها رجاءٌ خفيّ، وفي ثباتها سؤالٌ...!

خطا خطوةً نحو البوابة، ثم توقّف ، نظر إلى العتبة التي عبرها آلاف المرّات دون أن ينتبه، وفجأةً أدرك أنّ العتبات لا تكون حجراً فقط، بل حدّاً فاصلاً بين ما كنّا عليه وما سنصير إليه خلفه سنواتٌ كاملةٌ من الطمأنينة والألم، أمامه طريقٌ لا يعرف ملامحه ، وبينهما تلك العتبة، كأنها امتحانٌ صامت.

في الداخل، كان كلُّ شيءٍ في مكانه : السجادة التي بهت لونها الرفّ الذي يميل قليلاً، الإناء النحاسيّ الذي يلمع كلّما غُسل رغم قِدَمه ، لكن الأشياء لم تكن كما هي تماماً؛ كان هو الذي تغيّر ، كان يرى الآن ما لم يكن يراه : أن البيت لا يحميك من العالم، بل يدرّبك عليه ، أن الجدران لا تُبنى لتمنع الريح، بل لتعلّمك كيف تقف إذا هبّت...؟

تذكّر وعده ، ثمانية عشر عاماً مضت منذ أن وضع والده يده على كتفه وقال : « حين يأتي يومك، لا تخف من كلفته ، الحياة الحقيقية ليست رخيصة » ، يومها ظنّ أنّ الحديث عن الشجاعة عن مواجهةٍ عابرة، عن موقفٍ ينتهي بانتهاء اللحظة ، لكنه اليوم فهم أنّ الكلفة ليست دائماً سيفاً أو خسارةً واضحة؛ أحياناً تكون غياباً طويلاً، أحياناً تكون وحدةً لا يراها أحد، أحياناً تكون أن تمشي في طريقٍ لا يصفّق لك فيه أحد.

الدار لم تبكِ ، لم تسقط منها حجارة، ولم يتغيّر لونها ، لكنها كانت، في نظره، أقرب إلى قلبٍ يخفق بصبر ، كأنها تقول له : « اذهب ، إن عدتَ، ستجدني ، وإن لم تعد، سأبقى شاهدةً أنّك مررتَ من هنا ذات يوم، وكنتَ حيّاً »

في السماء كانت غيمةٌ رقيقةٌ تعبر ببطء، وكأنها تتعلّم الرحيل منه الطيور على الأسلاك القريبة صمتت لحظةً، ثم عادت إلى زقزقتها كأن شيئاً لم يحدث ، وحده كان يشعر بأنّ الكون كلّه ينتظر خطوته التالية.

شدّ على حقيبته، لا لأنّها ثقيلة، بل لأنّه أراد أن يتأكّد أنّه يمسك بشيءٍ ملموسٍ في لحظةٍ تذوب فيها الأشياء ، أخذ نفساً عميقاً فامتلأ صدره برائحة التراب المبلّل بندى الصباح. تلك الرائحة التي

كانت تعني له بداية يومٍ جديد، صارت الآن تعني بداية عمرٍ كامل.

تقدّم أخيراً ، تجاوز العتبة ، لم يلتفت هذه المرّة، لا لأنّه لم يُرِد، بل لأنّه شعر أنّ الالتفات قد يُعيده ، كان يعرف أنّ الحياة التي تنتظره لن تكون سهلة، وأنّ الوعد الذي قطعه سيطالبه بثمنه كاملاً لكنه كان يعرف أيضاً أنّ البقاء دون محاولة هو موتٌ بطيء، وأنّ الحياة، كما قال والده الحاج محمد، لا تُعطى لمن يخافها.

ومع كلّ خطوةٍ كان يبتعد فيها، لم تكن الدار تصغر في عينيه؛ كانت تكبر، حتى صارت معنى، ثم صارت فكرة، ثم صارت جزءاً منه لا يمكن فصله أدرك أخيراً أنّه لم يكن يغادرها حقاً، بل كان يحملها معه، كما يُحمل الضوء في العين حتى بعد أن نغلقها.

كان يرى جدرانها في صمت الطرقات، ويسمع صدى أصواتها في داخله، كأنّها لم تكن مكاناً بقدر ما كانت نبضاً يرافقه أينما ذهب، لا يبهت، ولا يتلاشى، بل يزداد وضوحاً كلما ابتعد أكثر وفي مكانٍ ما بين خطوته الأولى وخطوته التالية، شعر بشيءٍ يشتعل داخله؛ لم يكن خوفاً، ولا حنيناً فقط، بل حياةً كاملةً تتكوّن من جديد ، حياةٌ لا تشبه ما مضى، ولا تنتمي تماماً لما سيأتي، بل تنبثق من بينهما، كشرارةٍ تعرف طريقها رغم العتمة.

كان ذلك الاشتعال أشبه بوعدٍ قديم، وعدٍ نسيه الزمن لكنه لم ينسه قلبه، ظلّ ساكناً هناك، ينتظر اللحظة التي ينهض فيها من جديد.

الحياة التي ستكلّفه كثيراً، نعم...ستأخذ منه راحته، وستضعه أمام أسئلةٍ لم يكن مستعداً لها، وستجبره على أن يرى نفسه كما لم يرها من قبل لكنه ، رغم ذلك، شعر أنّها الحياة الوحيدة التي تستحق أن تُعاش، الحياة التي لا تُعطى مجاناً، بل تُنتزع انتزاعاً من بين الخوف والتردد، وتُبنى خطوةً خطوة، كما تُبنى الأحلام في صدور الذين لا يتراجعون.

كانت خطاه تثقل أحياناً، لكنه لم يتوقف ، وكانت الذكريات تلتف حوله، تحاول أن تعيده، لكنه لم يعد ذاك الذي يلتفت كثيراً فقد تعلّم، ولو متأخراً، أنّ الطريق إلى نفسه لا يمرّ عبر الرجوع، بل عبر المضي، حتى وإن بدا المدى غامضاً، وحتى وإن كان كلّ شيءٍ فيه غير مضمون ، وتحت سماءٍ لا تشبه سماء الأمس، وبين طرقاتٍ لا تعرف اسمه بعد، بدأ يشعر أنّه يُولد من جديد، لا كطفلٍ هذه المرّة، بل كإنسانٍ يعرف ثقل اسمه، ويعرف أيضاً لماذا يجب أن يحمله ، اسمٌ لم يعد مجرّد حروف، بل حكاية، وتاريخ، وقرارٌ بأن يكون كما أراد، لا كما فُرض عليه.

نعم... ستكلّفه هذه الحياة الكثير، لكنها ستمنحه اسمه الحقيقي وستعيد ترتيب ملامحه من الداخل، وستجعله يقف أمام نفسه دون خوف، وستفتح له باباً لم يكن يراه من قبل، باباً لا يؤدي إلى مكان، بل إلى معنى.

وستجعله، كما وعد منذ ثمانية عشر عاماً، حيّاً حقاً... لا يعيش فقط، بل يشعر، لا يمرّ بالحياة، بل يترك فيها أثراً، ولا يكون ظلّاً لأحد، بل يكون ذاته، كاملةً، واضحةً، لا تنكسر بسهولة، ولا تختبئ بعد الآن.

وفي تلك اللحظة، لم يكن يعرف إلى أين سيصل، لكنه كان يعرف شيئاً واحداً فقط: أنّه أخيراً... يسير في الاتجاه الصحيح.

اِرتباكُ الأغصان

هَمْسٌ بينَ الأوراقِ

لم تدخل رفل حياة أدم كما تدخل الأشياء الكبيرة؛ لم تُحدث ضجيجًا، ولم تُعلن عن نفسها، ولم تُطالب بشيء ، جاء حضورها خفيفًا، كنسيمٍ صيفي يمر بين الأغصان، لا يُرى، لكنه يُحسّ، كأن الهواء نفسه يريد أن يلتقط شيئًا جديدًا ، جاء كما يأتي التعب الخفيف بعد ضحكة طويلة، كما يأتي الحنين بلا سبب واضح، أو كذاك الشعور المفاجئ الذي يجعلك توقف كل شيء، وتنظر بعينك إلى شيء لم يكن مهمًا قبل لحظة، لكنه أصبح كذلك فجأة.

كان ذلك عند النهر الصغير في طرف قرية فرج، نهر لا يُكتب في الخرائط، ولا يُذكر في الأخبار، لكنه يعرف وجوه أهل القرية واحدًا واحدًا، يعرف خطواتهم، أصواتهم، ويحتفظ بأسرارهم الصغيرة التي لا تُقال في البيوت ، يعرف متى تأتي الشمس على الماء، ومتى تصعد الضفادع إلى الصخور، ومتى يختفي الطين بعد المطر، ومتى تصيح الطيور لتخبر عن حضور شخص أو غياب آخر.

عصر ذلك اليوم، كانت البنات يتجمعن لغسل السجاد، يضربن الماء بأيديهن، يضحكن، ويتذمرن من البرد والوحل، بينما يتصبغن بالماء البارد، والنهر يصغي، يلتقط الصدى ثم يخرجه في موجات صغيرة تتراقص على الحجارة ،كان المشهد مليئًا بالحياة، لكن أدم لم يكن جزءًا منه، لم يكن يريد أن يكون ، وكان يمر أحيانًا هنا ليس لأنه بحاجة إلى شيء، بل لأنه كان ، يهرب من ضجيج البيت حين يعلو، ومن صمت أبيه حين يطول ، كان الصمت عند محمد أثقل من الكلام، كأن كل جملة لم تُقل بقيت معلّقة في الهواء، تنتظر من يفهمها، ومن يلتقطها قبل أن تتحوّل إلى حجرة في القلب.

رآها أول مرة من ظهرها ، لم يرَ وجهها، ولا ملامحها، ولا حتى عينيها ، رأى شعرًا أسود طويلًا، مربوطًا بخيط أبيض بسيط، كأن صاحبة الشعر لم تُرد له أن يكون ملفتًا، بل مرتبًا فقط... كما ينبغي ، ورأى وقفة مترددة، لا هي متقدمة بثقة، ولا منسحبة وقفة من لا يريد أن يُرى كاملًا، ومن لا يملك رفاهية الاختفاء.

لم يلتفت قلبه فورًا ، لم يشعر بتلك الضربة المفاجئة التي يصفها الناس حين يتحدثون عن الحب لأول مرة ، لكن شيئًا أدقّ أخفّ، وأخطر، بدأ يتشكل داخله ، شعور يشبه ارتباك الشجرة

حين تهب عليها ريح غير متوقعة؛ ليست عاصفة، ولا تهديدًا لكنها كافية لتُربك توازن الأغصان.

وقف أدم أطول مما ينبغي ، قال في نفسه إنه ينظر إلى الماء، لكن عينيه كانت تعرف الحقيقة ، رأى انعكاس الشمس على الشعر الأسود، رأى انعكاس وجهه في الماء المضطرب، وتساءل، بلا وعي : هل تأتي كل يوم لتقلب شيئًا في الداخل...؟

حين التفتت، لم تبتسم ، لم ترسل تلك الإشارة السهلة التي تطمئن العابرين ، نظرت رفل...إلى ادم نظرة قصيرة، سريعة، كأنها تقيس المسافة بينهما، ثم أعادت عينيها إلى الماء ، لكن تلك النظرة... كانت كافية لتخلخل توازن ظلّ ثابت فيه سنوات، كافية لأن يشعر أدم أن شيئًا ما في داخله لم يعد في مكانه الصحيح، وأن شيئًا آخر بدأ يتحرك دون إذنه.

لم يتقدّم ، لم يفعل شيئًا يُذكر. لكنه حين ابتعد، كان يعرف، دون أن يعرف كيف، أن تلك اللحظة لن تمر كما مرّت غيرها.

عاد أدم مساءً إلى البيت ، الطريق بدا أطول من المعتاد، الغبار أثقل، والهواء أسمك، كأنه يحمل أثرها، كأن كل حجر وكل شجرة على الطريق يشهد على ما حدث ، حتى أصوات الغرباء بدا لها نبرة مختلفة، وكأنها تحاول الإخبار بشيء ما ، وحين دخل البيت

وقعت عيناه مباشرة على شجرة المشمش ، كانت قد بدأت تزهر أبكر من موعدها المعتاد ، لم تكن في ذروة ازدهارها بعد، لكن أولى الأزهار البيضاء المنقطة بالأحمر قد فتحت، وكأن الشجرة لم تصبر، كأنها شعرت بشيء لا تعرف له اسمًا، شيء يشبه ما شعر به أحمد عند النهر.

وقف أمامها طويلًا، طويلًا بما يكفي لأن ينقطع صوته الداخلي ويبقى سؤال واحد فقط يتردد في قلبه : لماذا استعجلتِ...؟ قاله في نفسه بصوت خافت، يكاد لا يُسمع ، مدّ يده، لكنه لم يلمسها ، توقّف قبل الجذع بقليل، كأنه خاف أن يربكها أكثر كأنه فهم فجأة أن الشجرة، مثل رفل، ليست لتُسقى، وليست لتُداس بخفة.

في تلك اللحظة، لم يكن يعرف اسمها بعد، ولا قصتها، ولا أنها ستصبح جزءًا من حياته ، لكنه شعر بشيء أعمق من المعرفة وأصدق من التفسير : أن ما بدأ عند النهر لن يبقى عند النهر وأن هذه الفتاة، التي جاءت بلا موعد، ستغيّر أشياء كثيرة، ليس في قلبه فقط... بل في الشجرة أيضًا.

في الليلة التالية، نام أدم متأخرًا، وحلمه كان مليئًا بالمياه المتدفقة للنهر، وبشجرة المشمش وهي تميل نحوه، وبفتاة لا يرى وجهها

لكنه يعرف أنها السبب في كل شيء ، وعندما استيقظ، كان الربيع قد بدأ... قبل أوانه.لم يكن الأمر مجرّد تبدّلٍ في الطقس ولا انحرافٍ بسيطٍ في مواعيد الفصول، بل كان كأنّ الأرض نفسها قرّرت أن تتقدّم خطوةً في الزمن، أن تسبق حساباته، أن تقول له دون صوت : بعض الأشياء لا تنتظر الإذن.

فتح أدم عينيه على ضوءٍ ألين مما اعتاد ، لم يكن ضوء الفجر القاسي الذي يشقّ العتمة بشيءٍ من البرودة، بل ضوءًا مشبعًا برائحة ترابٍ رطب، كأنّ المطر مرّ خفيفًا في الليل ولم يوقظ أحدًا سمع العصافير قبل أن يرى النافذة، سمعها قريبة، قريبة أكثر من أيّ صباحٍ مضى، وكأنها انتقلت لتبني أعشاشها في الحافة الفاصلة بين الداخل والخارج، بين قلبه والعالم.

جلس على سريره ببطء ، شعر أن جسده أخفّ، لكنه ليس ارتياحًا كاملًا ، كان هناك شيء يتحرّك داخله، شيء لا يعرف اسمه، لكنه يعرف أثره ، كأن نافذة فُتحت في صدره دون أن تُكسر، وكأن الهواء الجديد الذي دخل لا يريد أن يخرج.

اقترب من النافذة ، القرية التي يعرفها لم تتغيّر في شكلها، البيوت ذاتها، الأزقّة ذاتها، صوت الدلو وهو يُسحب من البئر، وخطوات النساء المتعجّلة قبل أن يشتدّ النهار ، لكنّ شيئًا غير مرئيٍّ كان

يغلّف كل شيء بطبقةٍ من الاحتمال ، كلّ تفصيل بدا وكأنه ينتظر أن يُعاد تفسيره.

رأى شجرة المشمش أولًا ، لم تكن في تمام ازدهارها بعد، لكنها لم تعد في البدايات المتردّدة ، ازداد عدد الأزهار، وانتشرت فوق الأغصان البيضاء الصغيرة كما تنتشر الكلمات في رسالةٍ لم تُكتب بعد. كانت الشجرة تقف كما وقفت دائمًا، لكنّها لم تعد الشجرة ذاتها. شيءٌ في وقفتها تغيّر؛ كأنها انحنت قليلًا للريح، أو لسرٍّ تعرفه ولا تفصح عنه.

تذكّر حلمه ، الماء الذي كان يتدفّق بلا ضفاف، والشجرة التي تميل نحوه، والفتاة التي لا يرى وجهها لكنه يعرف أنها السبب في كل شيء ، لم يكن حلمًا واضحًا، لكنه لم يكن عابرًا ، كان أشبه بإشارةٍ من مكانٍ بعيد، إشارةٍ لا تشرح نفسها لكنها تترك أثرًا طويلًا.

قال في نفسه : أيمكن أن يبدأ كلّ شيء هكذا...؟

بلا إعلان...؟

بلا اتفاقٍ مسبق مع القلب...؟

خرج إلى الفناء ، الهواء كان مشبعًا برائحة الأزهار، لا رائحة قوية بل تلك الرائحة التي لا تُدركها إلا إذا توقفت عن التفكير ، مدّ

يده هذه المرة ولمس جذع الشجرة ، لم يضغط، لم يهزّ، فقط وضع كفّه عليها كما يضع المرء يده على كتف صديقٍ لا يريد إزعاجه.

كانت باردة قليلًا، لكنها حيّة ، شعر بنبضٍ لا يُسمع، لكنه يُحسّ.

تساءل : هل تشعرين أنتِ أيضًا...؟

هل تعرفين لماذا استعجلتِ...؟

لم يكن السؤال موجّهًا لشجرة المشمش وحدها ، كان يتسلّل من تحت الكلمات إلى مكانٍ آخر ، إلى ضفّة النهر ، إلى تلك الوقفة المتردّدة ، إلى الخيط الأبيض الذي ربط شعرًا أسود طويلًا، كأنه أراد أن يحدّ من اندفاع شيءٍ لا يُحدّ.

في ذلك الصباح، لم يكن أدم كما كان في الأمس ، لم تتغيّر ملامحه، ولم يلحظ أحد فرقًا في صوته، لكنه شعر أن المسافة بينه وبين العالم تقلّصت ، والأشياء التي كان يمرّ بها دون انتباه أصبحت تطلب منه أن ينظر ، أن يتوقّف ، أن يُنصت.

الربيع لا يأتي دفعةً واحدة ، ويبدأ بفكرة ،بإشارة صغيرة في جذع شجرة ، بندى يلمع على ورقة ، بنظرة قصيرة لا تبتسم لكنها تبقى.

سار ادم في الطريق المؤدّي إلى النهر دون أن يقرّر ذلك ، لم يقل إنه ذاهب ليراها، ولم يعترف لنفسه بشيء ، فقط مشى، كأن قدميه تعرفان الطريق أكثر منه ، الغبار كان أخفّ من الأمس، أو لعلّه لم يعد يراه كما كان يراه ، حتى صوت خطواته بدا مختلفًا أقلّ ثقلًا، أكثر انسجامًا مع الأرض.

وعندما اقترب من الماء، شعر بذلك الارتباك اللطيف يعود ، ليس خوفًا، وليس اندفاعًا، بل ذلك التوتّر الهادئ الذي يسبق انفتاح زهرة ، رأى النهر كما هو، صغيرًا، متواضعًا، لا يُكتب في الخرائط لكنه كان هذا الصباح أوسع من حدوده ، كان يعكس السماء بلونٍ أصفى، ويحتفظ في عمقه بشيءٍ يشبه السرّ.

لم تكن هناك...وقف لحظة، لا خيبة واضحة، ولا ارتياح ، فقط إدراك بأنّ الانتظار دخل حياته دون أن يستأذنه ، وأن الانتظار مثل الربيع، لا يحتاج سببًا منطقيًا ليبدأ.

جلس على صخرة قريبة ، راقب الماء ، راقب انعكاس وجهه ، لم يعد وجه الأمس ، ليس لأن ملامحه تغيّرت، بل لأن عينيه صارتا تبحثان عن أثرٍ، عن ظلٍّ، عن خيطٍ أبيض يلمع في الضوء.

أدرك فجأة أن الربيع لا يعني الفرح فقط ، يعني الهشاشة أيضًا يعني أن تصبح قابلًا للانكسار ، أن تترك نافذة مفتوحة، حتى لو لم تكن متأكدًا مما سيدخل منها.

وفي مكانٍ ما في القرية، كانت فتاة تمشط شعرها الأسود وتعيد ربطه بخيطٍ أبيض بسيط، غير مدركة أن نظرة قصيرة أمس صنعت صدعًا صغيرًا في جدار صامتٍ ظلّ قائمًا سنوات ، غير مدركة أن شجرة مشمش أزهرت أبكر من موعدها، وأن شابًا يقف الآن عند النهر يتعلّم لأول مرة معنى أن يتغيّر دون أن يتحرّك.

عاد أدم إلى البيت قبل أن يزدحم المكان ، نظر مرةً أخرى إلى الشجرة ، ابتسم ابتسامة صغيرة، بالكاد تُرى ، لم يعد يسألها لماذا استعجلت...؟

بدأ يفهم...!

ان الحياة لا تنتظر اكتمال الظل لتزهر، ولا تنتظر أن تلتقي العيون طويلًا ، ولا تنتظر أن تتضح الوجوه ، أحيانًا، يكفي أن يمرّ نسيمٌ واحد في قلبٍ كان ساكنًا، فتبدأ الفصول كلّها بالتبدّل ، وفي ذلك اليوم، لم يكن الربيع في الحقول فقط، كان في المسافة الجديدة بين دقّتين من قلبه، في الضوء الذي صار أكثر احتمالًا، وفي الاسم

الذي لم ينطقه بعد...لكنه كان يعرف أنه سيغيّر أشياء كثيرة، ليس في الشجرة وحدها، ولا في النهر، بل في معنى أن يكون حيًّا.

نبضُ البداياتِ

لا شيءَ كانَ

ثمَّ كانَ كلُّ شيءٍ

لم ينطق أدم باسمها إلاّ بعد أيام، كأن الإسم لم يكن كلمة تُقال بل عتبة تُعبر ، وكأن لسانه كان يخشى أن يخطو قبل أن تتهيأ الطريق، قبل أن يتهيأ قلبه لاستقبال ما سيأتي معه ، رفل...اسمها قاله أول مرة بصوت داخلي، في صمت غرفته، وهو جالس على الأرض، ساقاه مطويتان، والكتاب الذي في يده مفتوح لكنه لم يقرأ منه حرفًا ، سقف الغرفة، بتشققه الذي يعرفه منذ الطفولة بدا مختلفًا فجأة؛ خطوط التشققات بدت أطول، أعمق، كما لو أنها تحاول أن تقول له شيئًا عن الانتظار، عن الأسماء، عن الأشياء التي لا تُمسك بسهولة، خرج الاسم خفيفًا، لكنه لم يسقط بقي معلقًا في صدره، كحبة مشمش ناضجة، إن عَضَضتها مرة... لا تُنسى، كان يخاف أن يقوله كثيرًا، ليس لأن الاسم قد يتلف، بل لأنه هو الذي قد يتغيّر إن اعتاد عليه ، بعض الأسماء إذا اعتدتَها، تفقد دهشتها. وأدم لم يكن مستعدًا بعد لأن يفقد دهشة رفل ، لم يسأل ادم عنها مباشرة، ليس لأنه لم يرغب في

معرفة المزيد، بل لأنه شعر أن السؤال سيكشفه، وسيُظهر ذلك الارتباك الذي لم يتعلم بعد كيف يُخفيه ، لكن القرية لا تحب الأسرار الطويلة، والأمهات يعرفن ما لا يُقال ، عرف ادم عنها من أمه حسناء أكثر مما عرف منها ، قالت : وهي تفرش الخبز قرب التنور : رفل بنت هادئة...أمها الحاجة نورة مريضة...ما تحب الجلسة الطويلة قالتها بلا اهتمام خاص ، كأنها تصف الطقس أو محصول القمح، لكن ادم تلقى الكلمات كما لو كانت رسالة مشفرة. هادئة...يعني لا تُشبه ضجيج الفتيات اللواتي يملأن الساحة ضحكًا ، أمها مريضة...يعني أنها تعرف مبكرًا ثقل الحياة ما تحب الجلسة الطويلة...يعني أنها لا تأمن للأماكن ، ولا تُعطي نفسها كاملة لأي شيء ، وكان هذا يكفي ، أحيانًا القليل من المعرفة أصدق من التفاصيل الكثيرة ، في المدرسة، لم يعد العالم هو نفسه ، الجدران التي حفظ تشققاتها، المقاعد الخشبية التي نحت عليها أسماء قديمة، السبورة التي ملّ من لونها، كلها بدت وكأنها تغيّرت دون أن تتغير ، الدفاتر لم تعد أوراقًا، صارت مساحات بيضاء يمكن أن يتسلل إليها اسمٌ واحد ، والوقت لم يعد وقتًا؛ صار انتظارًا طويلًا لشيء لا يعرف متى يأتي ، كان يفتح كتاب الفيزياء فيحاول أن يقرأ عن قوانين التوازن والكتلة والقوة، لكنه

فجأة يرفع نظره ويبدأ في سؤال نفسه : هل التوازن هشّ إلى هذا الحد...؟

هل يكفي حضور شخص واحد ليختل كل شيء...؟

كان يفكر في رفل وكأنها تجربة فيزيائية حية ، هل تشبه الشجرة...؟

تزهر قبل أوانها...؟

تُظهر جمالها قبل أن تملك ظلًا يحميها...؟

تخاف من الماء الكثير...؟

وتموت إن أُحبّت أكثر مما تحتمل...؟

كان هذا السؤال يخيفه ، لأنه أدرك، دون أن يعترف لنفسه، أن الحب ليس دائمًا نجاة ، أحيانًا يكون اختبارًا قاسيًا للقوة، اختبارًا للقدرة على التحمل، على الصبر، على المراقبة دون لمس ، وفي أحد الأيام، عاد ادم من المدرسة متعبًا ، لم يكن التعب جسديًا بل كان في رأسه، في الحوار الذي لا ينتهي بين ما يشعر به وما يخشاه، بين رغبته في الاقتراب وخوفه من الظهور وجد والده الحاج محمد ، واقفًا قرب شجرة المشمش ، كان يحمل دلو ماء تقدّم خطوة، ثم توقف، أعاد الدلو إلى مكانه دون أن يسقي. وقف أدم يراقب المشهد ، كان بسيطًا، لكنه ثقيل المعنى كظل

الشجرة في المساء، أو ككلمة لم تُقل بعد ، قال : وكأنه يسأل عن أمر عابر: ليش ما سقيتها...؟

لم ينظر الحاج محمد إليه ، بقيت عيناه على الجذع، كأن الشجرة أقدم من أي حديث ، قال : بصوت هادئ، صوت من تعلّم الكلام القليل : بعض الأشياء...إذا دللتها زيادة، تموت ، توقفت الجملة في صدر أدم ، لم تمر، لم تذهب ، بقيت هناك، تضغط على فكرة لم يكن يريد أن يراها بوضوح ، شعر فجأة أن الحديث لم يكن عن الشجرة فقط ، كان عن الناس، عن الحب، عن تلك المسافة الدقيقة بين العناية والاختناق، بين الرغبة في الاقتراب والخوف من الفقدان ، في تلك الليلة، جلس آدم قرب نافذته. القرية هادئة، والسماء أقل نجومًا من المعتاد ، الريح كانت تكاد لا تحرك أغصان الشجرة ، قال اسمها مرة أخرى، بصوت مسموع هذه المرة : رفل...وحين قاله، لم يشعر أنه يناديها، بل كأنه نادى ظلًا بدأ يتشكل في حياته ، ظل لا يُمسك، لا يُرى كاملًا، لكنه يرافقك أينما ذهبت ، عرف حينها أن الاسم لم يعد مجرد أسم صار ظلًا يسبق خطواته، كما سبقت شجرة المشمش ظلها يوماً في الأيام التالية، صار يلاحظ كل شيء في القرية بعين جديدة. حركة النحل بين الزهور، أصوات الأطفال وهم يركضون، الهواء

الذي يعبق برائحة الأرض بعد المطر ، وكل شيء أصبح مرتبطًا بانتظاره لها، بانتظاره لرؤية رفل، بانتظاره لصوتها، بانتظاره حتى لغيابها ، كان أدم يكتب اسمها في دفاتره، في الكتب، على أطراف الصفحات، يكتبه على الحجر إذا وجد فرصة، يهمس به في نفسه قبل النوم وبعده، كأن كل لفظة تُضيف ظلًا جديدًا إلى ذلك الظل الذي لا يراه أحد إلا هو ، كان يعرف أن الحب، ربما لا يحتاج إلى كلمات، بل إلى صمت، إلى مراقبة، إلى شعور دائم بخطر فقدان ما لا يُمسك ، وصار يخشى، ليس أن يفقدها، بل أن يحبها أكثر مما ينبغي.

خوفه لم يكن خوفًا من الغيرة أو الحسد، بل من الحب نفسه، من قوته، من طريقة دخوله إلى القلب بلا استئذان، من قدرته على تحويل كل شيء حوله إلى انتظار، إلى حنين، إلى سؤال بلا جواب وبينما كانت القرية تغط في نومها، ظل أدم مستلقيًا عند النافذة يراقب الظلال الطويلة لشجرة المشمش، ويفكر في رفل، ويدرك شيئًا واحدًا : أن الاسم لم يعد مجرد كلمة، بل كان بداية كل شيء....

وبينما كانت القرية تغطّ في نومها، ظلَّ أدمُ مستلقيًا عند النافذة يراقبُ الظلالَ الطويلةَ لشجرةِ المشمش، ويفكّرُ في رفل، ويدركُ

شيئًا واحدًا : أنَّ الاسمَ لم يَعُدْ مجرّدَ كلمة، بل كان بدايةَ كلِّ شيء...بدايةُ ارتباكٍ لم يعرفه من قبل، وبدايةُ وعيٍ جديدٍ بنفسه كأن قلبه كان يعيشُ نصفَ طاقته فقط، ثم جاء الاسم فأدار المفتاح في الباب الخفيّ. لم يحدث شيء في الخارج؛ القرية كما هي، البيوت متلاصقة، الأزقّة ضيّقة، الكلاب تنبحُ أحيانًا ثم تسكت، والريح تمرّ مرورًا عابرًا لا يوقظ أحدًا ، لكن في داخله كان هناك شيءٌ يُعاد ترتيبُه ببطء، كغرفةٍ تُفرغُ من أثاثها القديم لتستقبلَ ضوءًا مختلفًا.

نظر إلى الشجرة طويلًا ، كم مرّة رآها دون أن يراها...؟

كانت هناك دائمًا، في الصيف تفيضُ ثمرًا، وفي الشتاء تقفُ عاريةً إلا من صبرها ، لكن الليلة، بدت له كأنها مرآة ، ظلّها الممتدّ على الأرض لم يكن مجرّد أثرٍ لضوء القمر، بل كان سؤالًا ممدودًا: هل كلُّ جمالٍ يحتاج إلى مسافة...؟

وهل كلُّ اقترابٍ يهدّد التوازن الذي نحاول حمايته...؟

تذكّر أدم كلمة قالها والده، الحاجّ محمد، وهو يعيد الدلو دون أن يسقي : بعض الأشياء إذا دلّلتها زيادة... تموت ، ولم تعد الجملة حكمةً عابرة ، صارت قانونًا خفيًّا يحاول أن يفهمه ، ماذا يعني أن تحبّ دون أن تخنق...؟

أن تقترب دون أن تُثقل...؟

أن تترك للشيء مساحتَه كي يبقى حيًّا فيك...؟

أغمض أدم عينيه لحظة ، نطق الاسم في داخله مرّة أخرى، لكنّه هذه المرّة لم يسمعه صوتًا، بل أحسّه اتّساعًا ، كأن صدره صار أوسع بدرجةٍ لا تُرى، وكأن العالم، على ضيقه، ترك له فجوةً صغيرة يختبئ فيها ذلك الشعور الجديد ، لم يكن حبًّا كاملًا بعد ولم يكن إعجابًا عابرًا ، كان شيئًا بينهما، شيئًا يشبه الفجر حين لا يُعلن نفسه ضوءًا صريحًا، لكنه يبدّل لون السماء دون استئذان.

تخيّلها تمشي في ساحة المدرسة، هادئة كما قالت أمّه حسناء تحمل في عينيها تعبًا مبكرًا لا يُشبه عمرها ، تخيّلها تعود إلى بيتها إلى أمٍّ مريضة، إلى صمتٍ أطول من أعمار البنات في مثل سنّها شعر فجأة أنّ الاسم لم يعد يخصّه وحده؛ صار يحمل معها تاريخًا صغيرًا من القلق، من المسؤولية، من النضج الذي يجيء قبل أوانه وربما لهذا خاف... لأن من يعرف ثقل الحياة مبكرًا لا يُعطي قلبه بسهولة، ولا يسمح لأحد أن يدخل دون امتحان.

مدّ يده نحو زجاج النافذة، ولمسه بخفّة، كأنه يختبر برودته ، أدرك أن ما يشعر به ليس رغبة في الامتلاك، بل رغبة في الفهم ، أن يعرف كيف تكون قريبًا من إنسانٍ دون أن تغيّر مساره...؟

وكيف تكون حاضرًا دون أن تفرض حضورك...؟

كان هذا الاكتشاف أثقل من أي اعتراف ، في البعيد، صاح الديك باكرًا، كأنه أخطأ توقيت الفجر ، ابتسم أدم ابتسامة خفيفة ، حتى الأصوات تخطئ أحيانًا حين يختلّ ميزان الليل وربما هو أيضًا أخطأ حين ظنّ أن الحياة ستبقى كما كانت ، لأن الاسم، حين يدخل القلب، لا يطرق الباب ثم يمضي؛ هو يعيد ترتيب الأبواب كلّها.

شعر بتعبٍ هادئ، ليس تعب الجسد، بل تعب الفكرة حين تكبر فجأة ، أسند رأسه إلى الجدار، وترك عينيه تتبعان حركة الظلال التي بدأت تقصر شيئًا فشيئًا. قال في سرّه : إذا كان هذا هو ظلُّ البدايات... فكيف سيكون ضوؤها...؟

ولأول مرّة، لم يخَف من السؤال ، لأنّه فهم أن البداية لا تُطلب كاملة، ولا تُعاش دفعةً واحدة ، البداية تُحرس بالصبر، وتُسقى بقدر، وتُترك لتنمو كما تنمو شجرة المشمش : لا بالعجلة، ولا بالخوف، بل بثقةٍ خفيّة بأن لكلِّ شيءٍ أوانه.

وحين أشرقت أول خيوط الصباح، لم يكن قد نام، لكنه لم يكن كما كان ، الاسم الذي همسه في الليل صار جزءًا من صوته الداخلي، وصار قلبه يعرف، دون أن يعترف، أن حياته انقسمت

إلى زمنين : زمنٍ قبل أن يقول "رفل"، وزمنٍ بعد أن صار الاسم... بداية كلّ شيء.

بَوحُ الكلمات

نَبضٌ خلفَ الحُرُوف

لم يكن اللقاء مقصوداً، الأشياء المهمة نادرًا ما تُخطط، وغالبًا ما تأتي على شكل حدث صغير، هادئ، يمرّ أمامك بلا إعلان لكنه يترك أثرًا لا يُمحى، كظلٍ طويل يمتد على أرض صامتة دون أن تدري.

كانت رفل واقفة قرب الدكان الصغير عند مدخل القرية، الدكان الذي يعرف الجميع اسمه دكان ابو حسين، كانت تحمل كيس رز ثقيل، يثقل يديها الصغيرة، وكأن ثقلها يوازي ثقل الأفكار التي تدور في رأسها، الأفكار التي لم تجد بعد الكلمات التي تستحقها كانت تنظر إلى الطريق، بعينين تغمران المكان بصمت، كأنها تنتظر فكرة، لحظة، أو شيئًا لا تعرف له شكلًا.

مرّ أدم ببطء ، لم يكن يعرف لماذا يتحرك بهذه البطيء الذي يشبه وزن الزمن نفسه...؟

كل حركة تبدو كأنها توازن بين الصمت والمواجهة، بين الرغبة في التحدث والخوف من كسر اللحظة، بين ما يُراد وما لا يُراد ، كان

يشعر بأن الهواء نفسه يحمل بين جزيئاته حكاية صغيرة تنتظر أن تُقال، وأن كل خطوة قد تكون البداية أو النهاية.

قال، وكأن الكلمات خرجت بلا إذن: السلام عليكم...

رفعت رأسها، كأن الصوت أعادها من مكان بعيد، من عالم لا يرى إلا صدى نفسه ، لم ترَ الطريق بعد، بل وقفت دقيقة، تحدق فيه بعينين لا تخفيان الفضول والخوف معًا، ثم التفتت إليه: وعليكم السلام...

سكتا ، الصمت بينهما لم يكن فراغًا، بل امتلاء مؤجّلًا، امتدادًا لكل ما لم يُقل، لكل نظرة، لكل شعور صغير لم يُسمع، لم يُعترف به، ولم يُكتشف بعد.

قالت، دون أن تلتفت إليه :

أنت أدم... إبن الحاج محمد...!

أدم...هزّ رأسه، كأنه يرد تأكيدًا لا يفهمه أحد سوى الصمت نفسه : وأنتِ رفل...

ابتسمت، ابتسامة خفيفة، نصفها خوف، نصفها فضول، نصفها لا يُرى، وكأنها رسالة مبطنة لكل ما لم يقال بعد ، ثم قالت بصوت خفيف، يختلط بالخوف قليلًا : أمي تحب شجرة المشمش التي لديكم...!

أرتبك أدم ، لم يكن يتوقع أن تبدأ هي من هناك، من هذه اللحظة، من كيس الرز، من دكان ابو كريم الصغير من ابتسامة قصيرة ، كل شيء بدا صغيرًا، لكنه مهم جدًا، أكثر مما يستطيع أدم أن يصيغه بالكلمات ، « تزهر قبل وقتها » قالها أدم، كأنه يدافع عن شجرتهم، كأنه يصف الحياة، كأنه يحمي ما يحب من أي أحد... حتى من نفسه أحيانًا ...« نعم... لكن لا تعيش طويل » قالت : رفل بهدوء، صوتها خفيف، لا يُسمع إلا لمن يستمع أكثر من المعتاد، لكن في خفوت الصوت شيء يشبه الحذر، شيء يشبه الخوف، أو التجربة المبكرة للحياة التي تعرف أن كل جميل عابر، وأن كل لحظة من السعادة قد تأتي بظلها الطويل من الحزن لاحقًا.

ابتسم أدم ابتسامة ، تنبع من قلبه لكنها لم تصل إلى عينيه بعد، وكأنها عالقة في لحظة بين المرور واللقاء، بين الطفولة وما بعدها.

ثم دارت عيناه حول الدكان، حول الطريق، حول كل شيء يعرفه منذ الطفولة : الجدار المتصدع، الباب الخشبي الصغير، البضائع المتراكمة بعشوائية، أصوات الناس الذين يمرون بلا معنى، كل ذلك أصبح الآن جزءًا من حكاية لم تبدأ بعد ، وعندما التفت، لم تكن رفل هناك ، ظلّت واقفة لوهلة، ثم اختفت بين الزوايا الصغيرة

للقرية، كأنها لم تكن سوى حلم قصير، لكن حلمه أصبح ثقيلًا ثقيلًا على قلبه، على كل خطوة في طريق العودة، على كل نفس يأخذه في الهواء البارد الذي يملأ رئتيه.

لم يعد أدم إلى البيت مباشرة ، لم يقدر أن يضع كل شيء خلفه لم يقدر أن يترك الحكاية في الهواء كما بدأت ، دار حول شجرة المشمش، حول جذعها الباهت الذي أصبح الآن أكثر حيوية بوجود رفل في ذهنه، لمس الجذع ببطء، شَمّ أزهارها البيضاء المنقطة بالأحمر، ووجد في رائحتها شيئًا يشبه حكايات الطفولة أمان البيت، وصمت القرية بعد أن تغلق أبوابها ، أدم همس بصوت ضعيف، كأنه يشاركها سرًا : سمعتِ...؟

هي تعرفكِ...ظل واقفًا، يسمع الهواء وهو يعبث بالأوراق، يسمع الريح الخفيفة وهي تحرك الأغصان، لكن في كل اهتزاز للأغصان كان يسمع صدى اللحظة، صدى اللقاء الذي لم يُكتمل بعد صدى كل الكلمات التي لم تُقل بعد، وكل النظرات التي لم تلتق بعد.

عاد إلى البيت متأخراً، وفي رأسه دوامة من الأسئلة ، ليس عن رفل فقط، بل عن نفسه، عن شجاعته، عن الصمت الذي يملأ المسافة بينه وبين العالم، عن الشجرة التي تشبه رفل، وعن رفل التي

تشبه كل ما يخاف أن يسميه صراحة ، جلس عند نافذته، ينظر إلى السماء، إلى النجوم، إلى الطريق الذي ربما مرت عليه لحظتها يراقب الضوء الذي ينعكس على سقف البيوت، ويستمع إلى صوت الريح وهي تحرك أوراق الأشجار، وكأن الطبيعة كلها تعيد ترتيب اللحظة نفسها في رأسه.

كتب في دفتره :

أحياناً يكفي أن تقف أمام شيء...أو شخص...لتعرف أن العالم لم يعد كما كان ، وأن بعض اللحظات، حتى لو لم تكتمل ستبقى خالدة...ستصبح ظلًّا يسبق كل خطوة...حتى لو لم تكن تعرف الطريق بعد ، وكل ما نراه أو نلمسه أو نشعر به الآن قد يصبح جزءًا من نكون لاحقًا...

نام أدم متأخرًا، يحلم بالنهر الذي يلمع تحت ضوء القمر، بالقرية التي تحمل بين زواياها رائحة الأرض والأمان، بالشجرة التي تبدو وكأنها تحفظ أسرار السماء والأرض معًا، وبفتاة لم يرَ وجهها بالكامل بعد، لكنها أصبحت كل شيء : كل الربيع الذي يزهر في قلبه، كل الصمت الذي يختبئ بين أنفاسه، كل الانتظار الذي يثقل الأيام، وكل ما سيأتي من لحظات لم يُكتب لها تاريخ بعد.

وكان في داخله شعور عميق، لا يُسمع ، لكنه حاضر كظلٍ لا يغادر، كنبضٍ خفي يدق بين ضلوعه : أن حديثًا بدأ بلا موعد قد يتحوّل إلى حياة كاملة، وأن بعض اللقاءات، حتى لو مرت كنسيم قصير، تزرع في القلب حكاية لا تنتهي أبدًا حكاية تصنع من الوقت أغنية، ومن الصمت قصيدة، ومن النظرة الواحدة وعدًا بأن القادم أفضل.

وفي حلمه، كان النهر يُخبره بأسرار لا يعرفها إلا من يراقب المياه وهي تجري بين الصخور، والقرية تهمس بأصواتها القديمة وشجرة المشمش تراقب السماء كما لو كانت تعلم أن كل شيء له موعد وأن كل قلب يعرف كيف يحفظ من يحب في مكانٍ آمن داخل نفسه، حتى لو لم يُعلن له العالم يومًا ، وكان هناك شعور غريب بالسلام، كما لو أن كل شيء في الكون اتفق على أن يمنحه هذا الشعور، وأن يجعل الانتظار، مهما طال، لحظةً مقدسةً تستحق كل نبضة قلب ، ورغم أن الفتاة لم تظهر بالكامل في حلمه بعد إلا أن قلبه كان يعرفها جيدًا، يعرف ضحكتها قبل أن يسمعها يعرف صمتها قبل أن يراه، ويعلم أن كل لحظة قادمة ستكون بداية لحكاية جديدة، لا يمكن أن تنتهي، مهما حاول الزمن أن

يسرقها ، وكل صباح يستيقظ فيه، يحمل معه ذلك الحلم، وكأن الحياة نفسها بدأت للتو، تنتظر بشارات فرح له.

الغيرةُ الأولى

أوّلُ ألمٍ للحبّ

بدأت القرية تلاحظ، كما يعرف أهلها، لا تلاحظ شيئًا إلاّ حين تشعر أن شيئًا ما خرج عن مساره المعتاد، أو حين تتحرك الأشياء الصغيرة في أماكنها بطريقة لم تُعتد عليها العيون حتى الطيور بدت أكثر صخبًا في الصباح، وكأنها تتحدث همسًا عن أمرٍ غامض والهواء نفسه أصبح أثقل، محمّلًا بصمتٍ ينتظر أن ينفجر، محمّلًا برائحة المطر الذي لم يأت بعد.

لم يكن بين أدم ورفل شيء يُقال عنه « حب » بعد ، لم يكن هناك رسائل مكتوبة تتناثر بينهما، ولا لقاءات مخططة بعناية، ولا اعترافات تُحلّق في الهواء كأنها فراشات صغيرة تبحث عن مأوى.

لكن كان هناك شيء آخر ، مسافة أقل من اللازم بين نظرتين وصمت أطول من المعتاد، وكأن الهواء نفسه أصبح محتكرًا بينهما يمنعهما من التنفس بحرية ، كأن لكل حرفٍ لم يُقل، ولكل ابتسامة لم تُشارك، وزنٌ في العالم كله ، وفي مساءٍ رطب، هبط مطر خفيف غير متوقع، قطراته كأنها تخجل من ملامسة الأرض، تتسلل بخفة تلامس التراب للحظة، ثم تختفي دون أن تترك أثرًا.

فرح الناس بالمطر، تصفق أيديهم على الأسطح، يضحكون ويغنون، وكأن المطر وحده سبب كافٍ للفرح الكبير، لكن ليس بالنسبة للحاج محمد ، خرج مسرعًا إلى شجرة المشمش، يمشي بين الغبار والمطر الخفيف، ساحبًا قماشًا قديمًا، باردًا ورطبًا ليضعه حول التراب الذي يحيط بجذع الشجرة، كما لو كان يحمي حياة صغيرة، حياة لا تعرف الرحمة الكاملة من السماء.

صرخت حسناء أم أدم من نافذة البيت : لماذا...؟

المطر خير...!

ابتسم الحاج محمد ابتسامة نصفها قلق، نصفها جدية، وقال بصوت منخفض : ليس كل خير نتحمله...!

لم يفهم أحد، إلاّ أدم، الذي شاهد شجرة المشمش تنحني قليلًا تحت قطرات المطر، كأنها تخاف أن تتفتت، أو أن تُفصح عن أسرارها القديمة للتراب ، وقفت بجانبه، صامتًا، يراقب المطر يراقب الشجرة، يراقب نفسه ، شعور غريب ظهر لأول مرة : شعور بالمسؤولية ، ليس تجاه الشجرة وحدها، بل تجاه كل ما يحبه كل ما يهمّه، وكل ما لا يستطيع التحكم فيه.

في صباح اليوم التالي، لاحظ أدم أن بعض الأزهار قد تساقطت لم تكن ذابلة، ولا أثر للمرض أو التعب ، كانت كأنها انسحبت

برفق، لتقول : « أنا هنا ، لكن لن أُبالغ » الأرض أبتلّت بظل وردي خفيف، والمطر ترك بعضه على الأغصان، لكنه لم يلمس قلب أدم إلا بالارتباك والدهشة.

في المدرسة، لم تعد الأمور طبيعية ،جلست رفل بعيدًا، لم تنظر إليه، لم تبتسم ، كلماتها، حركاتها، حتى ابتعادها الصامت، تشبه كل شيء بدأ أحمد يلاحظه: الغربة، الخوف، الحذر، والاحترام الخفي لكل مساحة بينهما وبين العالم.

بعد الدوام، لم يستطع أدم الإنتظار أكثر ، قرر أن يتبعها، ليس لأنه يريد سؤالها عن شيء محدد، بل لأنه لم يعد يستطيع أن يعيش في عالم يغيب عنه الصوت الذي يعيده من مكان بعيد ، لحق بها قرب الساقية، المكان الذي يعرفه الجميع، حيث المياه تتجمع ببطء، وتخفي انعكاس السماء، وتنساب بلا توقف، كأنها تحاول ترويض الزمن نفسه.

قال، بصوت يمزج الفضول والخوف : رفل... حصل شيء...؟

لم توقف حركتها، ولم تلتفت فورًا ، قالت، دون أن تنظر : الناس تتحدث.

أدم عن اي شيء...؟

صوت أدم بدا صغيرًا، لكنه مضغوط بين الحيرة والقلق ، توقفت أخيرًا، نظرت إليه بعينين تكادان تحكيان أكثر مما تستطيع الكلمات : عن كل شيء...!

ابتسم أدم ابتسامة نصفها حيرة، نصفها ألم، نصفها تساؤل عن كل شيء حوله ، أدرك أن كلمة « كل شيء » تحمل ما هو أكبر من القرية، من الناس، من الأيام، من المطر ، تحمل ما هو داخله، ما هو في رفل، وما هو في الشجرة، وما هو بينهما جميعًا.

في تلك الليلة، نام أدم وهو يحمل صمتًا أثقل من أي يوم مضى حلم ، رأى شجرة المشمش تمد أغصانها نحو رفل، لكن ليس لتعانقها، ولا لتحميها من الريح أو المطر ، امتدت الأغصان كأنها تمنعها من الاقتراب، كأنها تقول بصمتٍ : « هذا ليس ملكك بعد... هذا لا يُمتلك بسهولة » أستيقظ أدم وهو يشعر بشيء لم يعرفه من قبل: الغيرة...

لكنها لم تكن منه وحده ، كانت من شجرة المشمش، من الأرض، من الريح، من كل شيء حوله...حتى من رفل نفسها الغيرة، كما فهم، ليست مجرد شعور بالقيد أو بالحب، بل شعور بمعرفة قيمة ما لديك قبل أن تسمح للعالم بالاقتراب منه.

جلس أدم قرب نافذته، يتأمل قطرات المطر التي لم تجف بعد على أوراق المشمش، يتأمل الطريق الذي يسلكه الناس، ويفكر في نفسه ، حياته لم تعد كما كانت قبل رفل، ولا كما كانت قبل المطر، ولا كما كانت قبل أن يشعر أن الاسم يصبح ظلًا والصمت كلاماً، والنظر مجرد وعد غير معلن.

كتب في دفتره، وكأنه يضع الحجر الأول في جدار قلبه الجديد :

« أحيانًا يغار كل شيء منك...حتى الأشياء التي تحبها أكثر منك...حتى الأشجار، وحتى الريح... وحتى الحب نفسه ، لكن الغيرة ليست قيدًا، بل إشعارٌ بأنك على الطريق الصحيح، وأنك بدأت تهتم حقًا بما يستحق أن تهتم به »

عادت القرية إلى صمتها المعتاد، لكن أدم عرف أن كل شيء تغيّر حتى المطر، الذي كان يسقط كقطرات حلوة على وجنتيه، لم يعد كما كان ؛ صار يحمل معه ثقل الغيرة الأولى، ذلك الشعور الغريب الذي يمزج بين الحب والخوف والرهبة ، حتى شجرة المشمش، التي طالما جلس تحت ظلها يفكر ويحلّم، بدت مختلفة كأنها تعرف شيئًا لا يعرفه هو، وكأن أوراقها الخضراء تحمل همسًا خفيًّا عن قلبه المتغير.

ورفل، تلك الفتاة...لم تكن مجرد رفيقة للمرح بعد الآن؛ صارت شاهدًا صامتًا على أول ألم للحب، على أول لحظة شعر فيها أدم بأن قلبه لم يعد ملكًا له وحده، بل صار مشتركًا بينه وبين كل شيء حوله.

تعلم أدم أن الحب لا يبدأ بالكلمات، لم يكن مجرد « أحبك » تُقال ثم تُنسى، بل هو إحساس يسبق الكلام، إحساس ينسج خيوطه في الصمت، في النظرات الطويلة التي تراقب العالم بعينين مفتوحتين، في الانتظار الذي يعلّم الصبر، وفي القدرة على الشعور بكل ما حولك قبل أن يسمع قلبك .

فكل ضحكة، كل همسة، كل حركة صغيرة في القرية كانت تعكس شيئًا من هذا الحب الجديد، الصامت، العميق ، تعلم أن الاحترام لا يُقاس بما تقول، بل بما تسمح به لنفسك أن تشعر به للآخرين وأن الانتظار ليس فراغًا، بل مساحة للنمو، ومساحة لتعلّم كيف يصبح القلب أقوى وأعمق.

وفي هذا الصمت، والمطر الذي كان ينهمر بهدوء كأنه يغسل الأرض من كل همٍّ قديم، وفي كل أوراق الشجرة التي تتمايل مع نسيم خفيف كأنها تهمس له بأسرارها، وفي خطوات رفل الصغيرة التي تصدح بصوتها في ردهات الدرب كما لو كانت تعزف أول

مقطوعة للحياة في قرية فرج ، شعر أدم لأول مرة بأنه جزء من شيء أكبر من نفسه، شيء يتجاوز حدود الزمان والمكان، شيء لا يمكن وضعه في كلمات، شيء يربط بين قلبه وكل ما حوله من الأرض، السماء، الهواء، والمطر نفسه.

لقد كانت الغيرة الأولى، رغم ألمها الخفي الذي يسكن بين الضلوع، شعلة صغيرة تضيء في داخله، فتجعل العالم كله يتحرك في داخله، فتشعل الحواس، وتوقظ المشاعر التي لم يعرف لها اسماً بعد ، كل لحظة أصبحت أكثر وضوحًا، كل شعور أكثر عمقًا وكل حب أكثر صدقًا، كما لو أن قلبه اكتشف لأول مرة طريقه نحو الحقيقة البسيطة، الحقيقة التي تقول إن كل شعور، مهما كان صغيرًا، له صدى واسع في الكون.

وبين قطرات المطر التي تتساقط على النوافذ شعر أدم بأن العالم كله قد أصبح لوحة حية، وكل لمسة وكل نظرة وكل همسة تحمل معنى أكبر مما يمكن أن يُقال ، كان يسمع في قلبه صدى خطوات رفل، صدى ضحكتها الصغيرة، صدى أنفاسها التي تمر بجانبه وكأنها تصنع موسيقى خاصة به، موسيقى لا يعرفها سوى قلبه.

لم يكن الأمر مجرد شعور بالحب، بل إدراك عميق لارتباطه بكل شيء حوله : بالأشجار، بالطرق القديمة، بطيور الصباح بنفحات

الريح التي تمر بين الأغصان، حتى بظل المطر على الأرض كان يبدو له كرمز لحياة بدأت للتو، لحياة تتشكل من تفاصيل بسيطة لكنها تحمل في طياتها كل المعاني.

الغيرة الأولى، ألمها الدافئ، كان بمثابة المفتاح الذي فتح له أبوابًا جديدة في قلبه، أبوابًا كان يخاف الاقتراب منها من قبل، أبوابًا يمكن أن تسمح للحياة بالدخول بكل ألوانها، بكل صخبها، بكل رقتها، بكل جمالها ، وهكذا، أصبح أدم يرى الأشياء بعين مختلفة بعين تعرف أن كل لحظة، مهما بدت صغيرة، هي جزء من قصة أكبر، جزء من قصة قلبه الذي بدأ يتسع للحياة وللحب وللجمال الذي لم يره من قبل ، وفي تلك اللحظات الطويلة، حين اختلط صمت الليل مع وقع المطر وصرير الريح بين الأغصان، شعر أدم لأول مرة بالسلام العميق، ذلك السلام الذي لا يحتاج إلى كلمات. كان نوعًا من الانصهار مع العالم، شعورًا بأن كل شيء حوله–كل ورقة تتساقط، وكل قطرات المطر التي تهبط على الأرض–كان يردد نبض قلبه ، لم يعد الزمن مهمًا، لم تعد الخسارة أو الفقد أو الانتظار لها وزن، لأن كل شيء بدا مرتبطًا به بطريقة سرية، وكأن الكون كله يهمس له بأن كل شعور وكل تجربة، مهما كانت مؤلمة، جزء من نسيج أوسع، نسيج الحياة نفسها.

أحس أدم بأن قلبه لم يعد مجرد عضو ينبض، بل أصبح فضاءً واسعًا يتسع لكل شيء : للحزن، للفرح، للغياب، للانتظار للحب الذي لا يُقال ، كان يسمع في داخله صدى كل المرات التي آلمه فيها الحب، وكل المرات التي ضحك فيها مع الغريب وكل الصرخات الداخلية التي لم يسمعها أحد سوى نفسه ، كل ذلك أصبح الآن لغة مشتركة بينه وبين العالم، لغة لا تحتاج إلى صوت، لغة تفهمها الروح وحدها.

ومع كل لحظة تمر، كان يشعر بأن الألم الذي حمله طوال حياته أصبح نوعًا من الضوء ، كل فقد، كل خيبة، كل غيرة، كل لحظة صمت طويلة، كانت تصقل قلبه وتجعله أكثر قدرة على الحب على الانتظار، على الفهم العميق للوجود ، كان يرى أن الحب ليس مجرد شعور لحظي، بل هو عملية بطيئة من الانصهار مع الزمن، مع الآخرين، مع الذات، والحب الحقيقي، حسب إحساسه في تلك اللحظات، هو حضور دائم في كل شيء، حتى في الصمت، حتى في الغياب، حتى في الرغبة التي لا تُعلن.

وفجأة، شعر بأن كل قطرة مطر تحمل معها حكمة، وأن كل حركة للريح بين الأغصان هي رسالة تقول له : « لتكن حاضرًا لا تحاول أن تمسك بكل شيء، فقط عش كل لحظة كما هي لأن

اللحظات الصغيرة هي التي تُصنع الأبدية » ، كان يتنفس بعمق وكل شهيق وزفير يصبحان جزءًا من الكون، جزءًا من اللحظة جزءًا من ذاته ، شعوره بالسعادة لم يكن فرحًا عابرًا، بل شعور بالاكتمال : لأنه يقف على حافة شيء أكبر، شيء لا يمكن تسميته، شيء يجعل كل المعاناة وكل الانتظار وكل الفقد يصبح ذا معنى.

وفي أعماق قلبه، فهم أخيرًا أن الحب الحقيقي ليس ما يُعطى أو يُؤخذ، بل ما يُعاش في كل نبضة، في كل شعور، في كل حركة. الحب ليس شيء يمكن السيطرة عليه، بل شيء يسيطر عليك شيء يفتح لك أبوابًا جديدة على العالم، على الناس، على نفسك وكل شيء بدا أكثر وضوحًا: الطبيعة، الصمت، المطر الريح الليل، وحتى هو ذاته أصبح حاضرًا بالكامل في قلب الحياة، وفي كل إحساس، حاضرًا في كل نبضة، حاضرًا في كل حب، حاضرًا في كل ألم وفرح.

وكان يعلم، بعمق هادئ، أن هذه اللحظة، اللحظة التي فيها كل شيء أصبح واضحًا ومتصالحًا، هي لحظة لن تأتي مرة أخرى لكنها ستكون دائمًا موجودة بداخله، كمرسى ثابت في قلبه مكان يمكنه العودة إليه مهما ابتعد، مهما تاه، مهما تغير العالم.

هنا، في هذا الصمت، في هذا المطر، في هذا الليل، أدرك أن الوجود كله يصبح حيًا حين نكون حاضرِين حقًا، وأن كل لحظة من الحياة – مهما كانت قصيرة أو مؤلمة– يمكن أن تكون أبدية إذا فهمنا كيف نعيشها بعمق...؟.

مَسافةُ كَفّ واحدةٍ

حينَ يَصيرُ الصَّمتُ

لُغةً بينَ قَلبينِ

لم يتفقا على اللقاء، لم يحددا ساعة، ولم يُرسلا رسالة واضحة ولا حتى همسة صغيرة تشير إلى مكان الانتظار، لكن كليهما عرف المكان، بلا سبب واضح، بلا خطة، بلا اتفاق ،كما لو أن الأرض نفسها حملت في طياتها توقهما ،كما لو أن الريح جلبت لهما الخبر قبل أن يعرفا، وكأن كل حجر، وكل ورقة شجرة، وكل همس في الهواء ،كان يشير بصمت : هذا هو « المكان » الساقية القديمة، التي يمرّ الماء فيها بلا سؤال، بلا توقف، بلا إنتظار كانت تنساب بين الأشجار كحدّ نحاسيّ عتيق، تحمل على ضفافها صمت القرية القديمة، صمت الأحلام المنسية، والحكايات التي لم يكتبها أحد، وحيث كل حجر يحتفظ بسرّه، وحيث الأشجار تتعانق بأغصانها دون أن يشهدها أحد، وضوء الغروب يحاول أن يخفي، ويكشف في الوقت نفسه، كأن الزمن نفسه يتردد في هذا المكان، لا يمضي كاملًا، ولا يبقى كاملًا، بل يعلّق اللحظات بين الذكرى والانتظار...

وصل أدم أولًا، جلس على حجر مبلل، بارد، يلسع أطراف أصابعه بنسمات المساء، كأن الحجر يحتفظ ببقايا من مطرٍ قديم أو ربما ببقايا من جلوسٍ سابق، لشخصٍ انتظر مثلما ينتظر الآن أخرج عصا صغيرة، ورسم بها دوائر في الطين الرطب، دوائر كبيرة دوائر صغيرة، دوائر متداخلة، ودوائر تكاد تكتمل ثم تتوقف كأنها خرائط لعالم لا يُرى ،كأنها أسئلة يضعها أمام الأرض لتجيب عليه لاحقًا، أو ربما محاولات لفهم كيف يمكن للصمت أن يكون صاخبًا بهذا الشكل.

توقّف قليلًا، نظر إلى الدوائر، ثم مسح بعضها بيده ،كأنه خاف أن تراه، أو خاف أن تفهم أكثر مما يريد أن يُقال ،كأن حتى الطين قد يفضح ما يخفيه القلب، كأن الأرض نفسها تحفظ الأسرار لكنها لا تمنع انكشافها، أبتسمت له ذكريات الأيام الماضية، رائحة المطر القديم على أغصان المشمش، صوت الساقية وهي تهمس بأخبارها للهواء، أصوات الطيور التي كانت تغادر المكان قبل الغروب ،كل شيء بدا له اليوم مختلفًا ،حادًّا مركزًا وكأنه لأول مرة يراه بعيون قلبه، لا بعين الرؤية البسيطة، وكأن الأشياء لا تتغير، لكن الشعور هو الذي يعيد تشكيلها.

وبعد دقائق، جاءت رفل، لم تأتِ بخطوات سريعة، ولا مترددة، بل بخطوات تعرف الطريق دون أن تفكر فيه ،كأنها لم تأتِ لتصل بل جاءت لأنها كانت هنا منذ البداية، لم تجلس بجانبه مباشرة تركت مسافة كفٍّ واحدة فقط، مسافة صغيرة، لكنها كانت العالم كله، كأنها تقول بصمت : أنا هنا، لكن لا يمكنك امتلاكي، أنا قريبة، لكن لي حدودي التي لا تُرى...

كان صوتها منخفضاً، كما لو كانت تتحدث أولًا إلى نفسها لتختبر صدق إحساسها قبل أن يسمعه أحد، أبوي كان يقول الشي اللي نحبّه هواي، نخاف عليه أكثر من اللازم.

نظر إليها أدم ببطء، حذر، كأن السؤال قد يجرحها إن خرج بطريقة خاطئة، وماذا يحصل...؟

ابتسمت ابتسامة حزينة، نصفها خوف، نصفها فهم، نصفها تعب من معرفة الجواب قبل قوله نتعبه، سكت أدم، لكن داخله لم يسكت ،كان يعرف أن الكلام لا يعني دائمًا ما يظهر على السطح، كان يعرف أن كل كلمة لها ظل، وأن كل صمت له صوت لا يُسمع ،كانت تتحدث عن كل شيء يُحب ويخاف عليه، عن كل قلب صغير يُقاس بالمسافة بين الحب والخطر، عن

كل شيء يمكن أن يُقتل بالإفراط أو بالإهمال عن كل حلمٍ صغير يحتاج إلى مسافة ليبقى حيًّا.

قال أخيرًا : وكأنه يهمس أكثر لنفسه، أنا لا أريد ان أثقل عليك...!

رفعت عينيها نحوه، بوضوح هذه المرة، بلا تردد، بلا محاولة للاختباء خلف الكلمات، عينان صافية، عميقة، كالبحر بعد المطر، كأنهما تحملان كل ما لم يُقل، وكل ما لا يمكن أن يُقال وأنا لا أريد أكون سبب...!

توقّف الوقت للحظة، ليس لأن شيئًا كبيرًا حدث، بل لأن شيئًا عميقًا استقر، لم يمسّ يدها، لم يقترب أكثر، لكن الهواء بينهما تغيّر، صار أثقل ،كأنه امتلأ بما لم يُقال ،كأنه أصبح يحمل وعدًا غير معلن ،وخوفًا غير مفهوم، وحدودًا لا تُرى لكنها تُحس.

جلسا صامتين، يسمعان هدير الماء في الساقية، وحفيف الأشجار حولهما، وهمسات الريح العابرة بين الأغصان ،كل شيء بدا حيًا يتنفس بينهما، يحرس تلك المسافة الصغيرة ،كأن الطبيعة كلها تواطأت لتقول : لا تقتربوا أكثر... ولا تبتعدوا...

في المساء، لاحظ أدم أن الشجرة أسقطت مزيدًا من أزهارها، رغم أن الجو كان معتدلًا ولم يسقط المطر، اقترب منها، لمس الجذع

شعر أنه أبرد من المعتاد ،كأن البرودة ليست في الخشب، بل في الإحساس ،كأنها تقول له بصمت : حتى الأشياء التي تبدو ثابتة... تتأثر بما لا يُرى.

وقف قليلًا، وضع جبينه على الجذع، وأغمض عينيه ،كأنه يحاول أن يسمع، لا صوتًا، بل معنى ،كأن الشجرة تحفظ شيئًا من قصتهما، أو ربما تعكسه فقط، ابتسم ابتسامة نصفها حزن نصفها معرفة، أدرك أن كل شيء في العالم يحتاج لحدود، حتى الحب، حتى القرب، حتى الكلمات، حتى الصمت ، حتى هو نفسه، وحتى تلك المسافة الصغيرة التي بدت فجأة أثمن من أي اقتراب، جلس طويلًا، يراقب الأزهار المتساقطة، يراقب كيف تسقط بهدوء، بلا صوت، بلا احتجاج، وكأنها تقبل أن تكون لحظة عابرة في حياة الشجرة، لكي تبقى الشجرة حيّة، فهم فجأة أن بعض الأشياء يجب أن تسقط، لكي لا ينكسر كل شيء.

نظر أدم إلى رفل ،كانت صامتة، لكن صمتها لم يكن فراغًا ،كان ممتلئًا ،كان يشبه كتابًا مفتوحًا بلغة لا تُقرأ بسهولة ،كان يشبه نافذة تُطل على عالم، لكن لا يمكنك الدخول إليه إلا إذا عرفت كيف تنتظر...؟

في تلك اللحظة، شعر أدم أن العالم كله محصور بهذا الكفّ الواحد بينهما ،كأن كل ما في الكون أصبح محدودًا في مساحة صغيرة مساحة يمكن أن تهتز بأي لمسة، بأي كلمة، بأي نظرة، مساحة يراقبها الزمن بعينين ثاقبتين، ويراقبها القلب بعاطفة مرتجفة، أخرج دفتره ببطء ،كأنه يخاف أن يكسر اللحظة، وكتب : « أحيانًا تكفي مسافة كفٍّ واحدة لتكون العالم كله، أحيانًا يكون الصمت أغلى من الكلام، والنظر أصدق من أي وعد، والحب لا يبدأ بالاقتراب، بل يبدأ بالحدود، وبالقدرة على الانتظار دون أن نفقد الشعور، ودون أن نؤذي ما نحب »، رفع أدم عينيه بعدها، لم يقل شيئًا، ولم تقل شيئًا، لكن كليهما عرف أن ما بينهما لم يعد كما كان، ليس لأنه أصبح أكبر، بل لأنه أصبح أوضح، وأكثر هشاشة، وأكثر صدقًا.

ظل أدم هناك حتى اختفى الضوء الأخير من الأفق، حتى أصبح كل شيء هادئًا، حتى بدا أن الساقية نفسها أبطأت، وكأن العالم كله أصبح صامتًا، ينتظر أن يسمع خطوة واحدة...تقرّب أو تُبعد، ثم، في اللحظة الأخيرة، قبل أن يرحل كل ضوء، اقتربت نسمة ريح من بين ظلال الشجر، هادئة، لكنها تحمل شيئًا من عراقة الزمن ، دارت حولهما بخفة، كأنها تراقصهما قبل أن تهمس

لهما سرًّا لا يسمعه سوى القلب. رائحة المطر القديم، الذي سقط على الأرض منذ أيام لم يعد يعرفها إلا التراب، كانت تتخلل الهواء، تمنحهما إحساسًا بالغموض والحنين معًا ، كان المكان يبدو وكأنه توقف عن الحركة، كأن العالم كله أخذ نفسًا واحدًا، متأملًا في لحظة لا تتكرر، لحظة تكاد تصهر الماضي والمستقبل في قلب الحاضر.

الحب، همست الطبيعة بصوت لا يسمعه إلا من صمت، يحتاج للصبر ، ليس لأنه ضعيف، بل لأنه عميق جدًا لدرجة أن سرعة العالم لا تليق به، وأن الكلمات وحدها عاجزة عن حمله ، الأشياء العميقة، قالتها الريح بهدوء، لا تُؤخذ بسرعة، ولا تُفهم بسهولة. قد تمر بجانبها أجيال، وقد ترى السنين تتوالى، لكنها تبقى مخفية في طيات الوقت، تنتظر أن يكتشفها قلب يعرف كيف ينظر...؟ حتى لو كانت المسافة بين قلبين كفًّا واحدًا، فإنها قد تحمل العالم كله، قد تكون بحجم الكون إذا نظرنا إليها بعين القلب، وقد تحتاج عمرًا كاملًا لتفهم معانيها، لتستوعب جمالها، لتشعر بثقلها وروعتها معًا.

كانت أوراق الأشجار تتمايل بخفة، كما لو أنها تصفق لهما بصمت، وتقول : « لا تندفعوا، لا تجرفكم الرغبة، لا تقفزوا فوق

اللحظات، دعوا كل شيء ينضج في وقته » وكلما اقتربت نسمة الريح أكثر، شعرا بأن كل شيء من حولهما يتنفس معهما، وأن الحنين، الذي كان يثقل صدر كل منهما منذ زمن بعيد، بدأ يذوب في هواء الصمت، يتحول إلى نور خافت يغلف الروح برقة كأنه الضوء الذي يولد في قلب الليل، ليس ليضيء الطريق فقط بل ليعلمهما أن الانتظار نفسه يحمل جمالًا، وأن الصبر ليس خسارة، بل اكتشاف.

حتى المساء، حين بدأ اللون الذهبي يتلاشى من السماء، ظلّتا واقفين، يشاهدان كيف ينسحب الضوء ببطء، وكأن الشمس تعلم أنه حتى الحب يحتاج وقتًا ليصبح كاملًا، ليصبح حقيقيًا، ليترك أثرًا لا يمحوه شيء، لا كلام ولا زمن ، وكل نفس من الهواء، وكل همسة من الطبيعة، وكل قطرات المطر القديمة التي لا تزال عالقة برائحة الأرض، كانت تقول لهما شيئًا واحدًا: « لتبقى القلوب صافية ولتبقَ العيون مفتوحة على ما هو أبدي...حتى وإن كان الانتظار طويلًا، فإن النهاية تستحق كل لحظة صبر ».

امتحانُ القلب

بينَ الامتِحانِ وَالنَّبض

بدأ شهر الامتحانات، وكان السادس الإعدادي أشبه بحلبةٍ لا ترحم، بلا أمان، بلا رحمة، بلا استراحة ، لم يكن مجرد وقتٍ للدراسة، بل زمنًا يُعاد فيه تشكيل الإنسان من الداخل، حيث تُختبر القدرة على الاحتمال قبل المعرفة، ويُقاس الصبر قبل الذكاء. لم يكن هناك وقت للحب، ولا لمشاعر القلب الهادئة التي لا يمكن جدولتها أو ترتيبها، ولا حتى لتلك اللحظات الصغيرة التي يحتاجها الإنسان ليعود إلى نفسه، ليلتقط أنفاسه، ليتذكر أنه ليس آلةً تحفظ وتكتب، بل روحٌ تتعب وتشتاق وتخاف.

الكتب تراكمت حول أدم، لا كأوراقٍ صامتة، بل كجدرانٍ عالية تضيق عليه المساحة، وتعيد تشكيل أفكاره وفق إيقاعٍ صارم ، كل كتاب كان يشبه بابًا مغلقًا، يحتاج إلى جهدٍ لفتحه، وكل صفحة كانت اختبارًا جديدًا، ليس في الحفظ فقط، بل في الثبات، في القدرة على الاستمرار رغم التعب، رغم الضجر، رغم تلك الرغبة الخفية في الهروب ولو لساعة واحدة ، صار الوقت يمرّ بشكلٍ

مختلف، لا يُقاس بالساعات، بل بعدد الصفحات، بعدد المسائل بعدد المرات التي يُعيد فيها الفكرة حتى تثبت.

الأسئلة لم تعد مجرد أسئلة، بل كائناتٌ صغيرة تلاحقه، تظهر في ذهنه حتى وهو صامت، حتى وهو يحاول النوم ، تتداخل، تتكرر تتشابه، وكأنها تتواطأ عليه لتذكّره أنه في سباقٍ لا يقبل التباطؤ.

الأوراق البيضاء، التي كانت يومًا مساحةً للبوح، صارت الآن ساحات معركة، تُكتب عليها الإجابات كما لو كانت قرارات مصيرية، كل كلمة فيها قد ترفعك أو تُسقطك، كل خطأ صغير قد يتضخم ليصبح خسارة لا تُنسى.

أصبح أدم يقسم أيامه بدقةٍ مرهقة، يوزّعها كما يُوزَّع الضوء في غرفةٍ مظلمة: نصفها للكتب، ونصفها لما لا يُكتب ، لما لا يُقال. لما لا يُفهم بسهولة ، صار يحمل في داخله منهجين : منهجًا دراسيًا مليئًا بالقوانين والمعادلات، ومنهجًا آخر خفيًا، يخص القلب، يخص رفل، يخص تلك المسافة التي لا تُقاس بالمتر، بل بالانتظار.

رفل... لم تعد تظهر كما كانت ، غابت تدريجيًا، لا لأنها أرادت بل لأن الحياة دفعتها إلى زاوية أخرى، حيث المسؤولية أثقل من الرغبة، وحيث البيت لم يعد مجرد مكان، بل عبء يومي لا يمكن

تركه. أمها المريضة، تفاصيل البيت، التعب الذي لا يُقال... كل ذلك جعل حضورها أقل، لكن أثرها لم يقل ، كان حضورها يتحول من واقعٍ يُرى، إلى شعورٍ يُحس.

حتى الهواء في القرية تغيّر ، لم يعد خفيفًا كما كان، بل صار مشبعًا بشيءٍ ثقيل، شيء يشبه القلق الممتد، الذي لا ينتهي بانتهاء اليوم كل نفسٍ صار يحمل معنى، كل لحظة صارت تُحسب، وكأن الحياة نفسها دخلت امتحانًا طويلًا لا يُعلن نتائجه بسرعة.

الأشياء الصغيرة التي كانت عادية، صارت الآن أعباءً ، نظرة كلمة، تأخير بسيط، رسالة غير مكتملة... كلها صارت تحمل وزنًا أكبر مما تحتمل ، حتى الحب، لم يعد ملاذًا، بل اختبارًا آخر اختبارًا لا توجد له أسئلة واضحة، ولا إجابات نموذجية، لكنه لا يقل صعوبة عن الفيزياء والكيمياء، وربما كان أصعب، لأنه لا يُصحَّح بقلم، بل بالقلب.

كل لقاء محتمل أصبح مشروع حساب ، كل كلمة محتملة تمر عبر ميزان دقيق : هل تُقال... هل تُؤجل... هل تُفهم بشكل صحيح...؟

تعلم أدم أن الحب ليس عفويًا كما ظن، بل هو أيضًا قوانين خفية، توازنات دقيقة، ومسافات يجب احترامها حتى لا ينكسر شيء لا يمكن إصلاحه بسهولة.

وفي أحد الأيام، وصلت إليه تلك الرسالة الصغيرة، عبر أختها أزل : « ان تأخرت...لا تزعل متي »

قرأها مرة، ثم مرة، ثم مرات كثيرة، وكأنها ليست جملة، بل اعتذار طويل مختصر ، بكلمتين ابتسم، لكن ابتسامته كانت تحمل شيئًا من التعب، شيئًا من الفهم الجديد ، لم يزعل... لكنه شعر أن قلبه يتعلم درسًا مختلفًا : أن الانتظار ليس فراغًا، بل امتلاء صامت، أن الصبر ليس ضعفًا، بل قدرة على الاستمرار دون ضمان ، وفي ذلك الأسبوع، حدث شيء بسيط، لكنه لم يكن بسيطًا في داخله.

أصرّ أحد الأقارب على سقي شجرة المشمش بكثرة، ظنًا أن الخير في الزيادة، وأن الماء لا يمكن أن يضر ، لكن الماء نزل أكثر مما يجب، أكثر مما تتحمله الجذور، وقف أدم يراقب، وقلبه مشدود وكأن ما يحدث للشجرة يحدث له.

بعد أيام، بدأت أطراف الأوراق تصفر ، لم تمت الشجرة، لكنها تغيّرت ، فقدت شيئًا من حيويتها، من خفّتها، من ذلك البهاء

الذي كان يميزها ، كانت كل ورقة صفراء رسالة واضحة : ليس كل عطاءٍ صحيح، وليس كل زيادة خيرًا، وليس كل حبٍ ناجحًا إذا فقد توازنه.

حينها، فهم أدم شيئًا عميقًا : أن الإفراط قد يُفسد ما نحاول حمايته، وأن الخوف الزائد قد يقتل الجمال، وأن الحب، مثل الشجرة، يحتاج مقدارًا دقيقًا من العناية... لا أكثر، ولا أقل.

وقف ليلًا قرب الشجرة، والقرية نائمة، والصمت يلفّ كل شيء حتى الريح بدت وكأنها تمشي بهدوء، كأنها تخشى أن توقظ شيئًا هشًا ، قال بصوتٍ خافت : ترى ما نسيتك...لكن ليس كل شيء بيدي...

لم يكن يوجه كلامه الى رفل فقط، بل للحياة كلها، لكل ما خرج عن سيطرته، لكل ما لم يستطع إصلاحه رغم رغبته.

وفي تلك الليلة، رأى حلمًا مختلفًا ، رفل تقف تحت الشجرة لكنها ليست كما كانت أقرب، وأبعد في الوقت نفسه الشجرة تمطر أزهارًا، لكنها لا تستقر، لا تلتصق، بل تسقط... تسقط كما لو أنها لا تجد مكانًا لها ، وكأن الحلم كان يقول له : الحب هشّ...والحياة أقصر مما نظن...والخطأ الصغير قد يغيّر كل شيء.

اختفت رفل فجأة، وبقيت الأزهار تسقط. وكل زهرة كانت تأخذ معها جزءًا من قلبه ، استيقظ مذعورًا، ليس من الحلم، بل من معناه ، لأول مرة، خاف أدم بصدق ، خاف أن يخسر الاثنين...أن تخسره رفل، وأن تخسره شجرة المشمش، وأن يخسر نفسه بينهما.

جلس طويلًا عند نافذته، ينظر إلى السماء، إلى القرية النائمة، إلى الساقية التي تمضي دون أن تسأل أحدًا، إلى كل شيءٍ يبدو ثابتًا... لكنه في داخله قابل للانهيار.

وأدرك أخـيرًا أن الحياة ليست خطوطًا منفصلة، بل شبكة مترابطـة : الحب، الدراسة، العائلة، الخوف، الأمل...كل شيء يؤثر في الآخر، وكل خطأ صغير قد يمتد أثره أبعد مما نتوقع ، فتح دفتره، وكتب، وكأنه يحاول أن ينقذ شيئًا بالكلمات : « الحب لا يُحفظ في الدفاتر، ولا يُكتسب بالقوة. هو توازن، هو صبر، هو فهمٌ يأتي متأخرًا، لكنه حين يأتي، يغيّر كل شيء ، هو أن تحمل قلبًا آخر دون أن تُثقله، وأن تحب دون أن تُغرق، وأن تقترب دون أن تكسر المسافة التي تحميكما معًا ».

بقي أدم جالسًا في الظلام، يسمع الريح تمر بين أغصان المشمش كأنها تهمس بحكايات لا تُقال، ويشم رائحة التراب بعد المطر

ويشعر بتلك المسافة الصغيرة بينه وبين رفل...مسافة لا تُرى لكنها تُحس بكل تفاصيلها.

ومع كل يومٍ يمر، مع كل امتحان، مع كل ورقة، مع كل لحظة صمت، كان يتعلم شيئًا جديدًا، ليس فقط عن الدراسة، بل عن الحياة.

تعلم أن النجاح ليس فقط في الإجابة الصحيحة، بل في القدرة على الاستمرار ، وأن الحب ليس فقط في اللقاء، بل في الصبر وأن الخوف ليس دائمًا عدوًا، بل أحيانًا دليل على أنك تحاول أن تحمي شيئًا يستحق.

رفع رأسه نحو السماء، نظر إلى النجوم، وشعر أن كل شيء، رغم تعقيده، يسير نحو معنى ما ، لم يعد يريد الاستعجال ، لم يعد يخاف من الانتظار كما كان.

صار يفهم شيئًا لم يكن يدركه من قبل. أن بعض الأشياء في هذه الحياة لا تُؤخذ بالقوة، ولا تُستعجل، ولا تُفرض على النفس أو على الآخرين ، كانت حياته حتى وقت قريب مليئة بمحاولات السيطرة، بمحاولات فرض إرادته على كل ما يحيط به، لينتصر على الوقت، على الظروف، على الألم نفسه ، لكنه اليوم، بعد أن مرّ بما مرّ، بدأ يرى الصورة كاملة، ويدرك أن الحياة ليست سباقًا

بل مدرسة صامتة تعلمك، خطوة خطوة، أن تعيش كل لحظة كما هي، أن تسمح للأحداث أن تأخذ مجراها الطبيعي، وأن تمنحها الفرصة لتنضج، كما تنضج الثمار على الشجرة في صمتها، دون أن تتعجل سقوطها.

تعلم أن القوة الحقيقية ليست في السيطرة، بل في الصبر، وفي القدرة على الانتظار دون فقدان الأمل، على العيش مع ما هو مؤلم، مع ما هو ضائع، مع ما يبدو بلا معنى، لأن كل شيء — مهما بدا قاسيًا — يحمل درسًا. وأنه في اللحظة التي تتوقف فيها عن المقاومة، وتسمح للحياة بأن تأخذ مجراها، تبدأ الأشياء بالترتيب من تلقاء نفسها، بطريقة لا يستطيع العقل أن يخطط لها ولا القلب أن يفرضها.

صار يرى أن الأيام، مهما اشتدت ومهما حملت من صعاب دائمًا تمنح فرصة أخرى، فرصة لإصلاح، فرصة للتصالح مع الذات، فرصة للبدء من جديد ، وأن ما يفرضه عليك القدر ليس عقابًا، بل دعوة لتعلّم التوازن ، التوازن بين القلب وما يريده، وبين الواقع وما يفرضه عليك ، بين الحلم وما يمكن تحقيقه، وبين الخسارة وما يجب التخلي عنه ، بين ما يسكب عليك من ألم وبين ما يتركه لك من هدوء مفاجئ، مثل شمس تشرق بعد

عاصفة طويلة، لتذكرك أن الحياة تستمر، وأن قلبك – إذا عرفت كيف توازن بين ما فيه وبين ما حوله – قادر على الصمود، على التعافي، على المحبة مرة أخرى، على الفهم بدل الانتقام، وعلى العطاء بدل الانتظار بلا جدوى.

صار يفهم أن النضج لا يأتي بالإجبار، وأن الحب، والصداقة والسعادة، وحتى السلام الداخلي، كلها تحتاج إلى وقت لتختبره وقت لتشعر به، وقت لتدع قلبك يتعلم كيف يقدر اللحظة وكيف يترك الأمور تتكشف على طبيعتها...؟

صار يرى أن كل تجربة، كل فقد، كل ألم، وحتى كل فرح صغير يحمل معنى، يحمل درسًا، وأن الإنسان الذي يختصر حياته بمحاولات السيطرة، سيعيش دائمًا شعورًا بالفراغ ، أما من يفهم الصبر، من يعرف أن يسلم لنفسه وللحياة، فيكتشف فجأة أن العالم ليس ضدّه، وأن الحب الحقيقي ليس شيء يُستعجل، وأن كل ما يُؤجل إلى وقته الصحيح... يحلو، ويثري القلب، ويمنحه عمقًا لم يكن ليعرفه لو سعى للسرعة والقوة.

صار يشعر بنوع من السلام، ليس هدوءًا سلبيًا، بل وعيًّا كاملًا يقف على الحافة بين ما يحدث وما يمكنه التحكم فيه ، صار يعرف أن الحياة – مهما حملت من صعاب ومهما كانت قاسية –

دائمًا تعطي فرصة، إن تعلمت أن تنتظر، أن تُصغي، أن تُعطي لنفسك الحق في أن تتأمل، أن تخطئ، أن تحزن، وأن تنهض صار يفهم أن الحياة ليست ما يحدث لك فقط، بل كيف تختار أن تعيش كل لحظة منها، وكيف تصنع من الألم درسًا، ومن الصمت فهمًا، ومن الانتظار نضجًا، لتدرك أخيرًا أن كل شيء يمكن أن يكون جميلًا، إن عرفت الصبر، وإن عرفت كيف توازن بين قلبك وما تفرضه عليك الأيام.

الغيابُ حضورًا

رسالةٌ لم تُكتَب

لكنَّها غيَّرتْ ملامحَ القلبِ إلى الأبد

غياب رَفَل لم يكن حدثًا يمكن تحديده بلحظة، ولا واقعة يمكن تأريخها بيومٍ أو ساعة ، لم يكن شيئًا يُروى على هيئة قصةٍ واضحة لها بداية ونهاية، بل كان امتدادًا خفيًا تسلل إلى الأيام كما يتسلل المساء إلى الضوء، دون أن ينتبه له أحد، حتى يصبح هو الحقيقة الوحيدة.

رفل لم تختفِ فجأة كما يفعل الراحلون عادة، لم تودّع، لم تلوّح بيدها من بعيد، لم تترك وراءها حتى ذلك الفراغ الصاخب الذي يملأه البكاء ، اختفت كما تختفي الأشياء العميقة : بهدوءٍ شديد وصدقٍ موجع، وكأنها لم تكن تريد أن تثقل على أحد بغيابها لكنها فعلت، وبقوةٍ لم يكن أحد مستعدًا لها.

في المدرسة، لم يكن مقعدها مجرد خشبٍ فارغ، بل كان سؤالًا مفتوحًا، فجوةً في المكان، خللًا صغيرًا في نظام العالم. الطلاب مرّوا بجانبه وكأنهم يخشون النظر إليه، كأنهم يخافون أن يبتلعهم

ذلك الفراغ إن أطالوا التحديق ، حتى صوت الجرس بدا مختلفًا أقل وضوحًا، وكأن الزمن نفسه أصبح مترددًا.

المعلمون حاولوا تبسيط الأمر، اختزال الغياب في جملة قصيرة : ظرف عائلي...وستعود لكن الأيام لا تُخدع بالكلمات، ولا تُرمَّم بالافتراضات لكن الأيام تعرف حين يتحول الغياب إلى حقيقة إلى شيء لا يُنتظر زواله بسهولة ، أما أدم، فلم يكن غيابها بالنسبة له فكرة، ولا احتمالًا... بل كان شعورًا كاملاً، ثقيلًا، لا يُحتمل.

كان يجلس في مكانه، يفتح كتبه، يتظاهر بأنه ما زال جزءًا من هذا العالم، لكنه في الحقيقة كان ينزلق ببطء إلى عالمٍ آخر، عالم لا تُقرأ فيه الكلمات، بل تُشعر.

كل حرفٍ كان يتفكك قبل أن يستقر في ذهنه، كل سطرٍ كان يهرب منه كما لو أنه يرفض أن يُفهم ، وحين يحدق طويلًا في الصفحة، لا يرى إلا انعكاس عينيها بين السطور، كأن الكتاب نفسه يحتفظ بها، كأن الحروف صارت ذاكرة، لا علمًا ، وفي الليل...كان كل شيء يصبح أكثر صدقًا.

الصمت لم يعد مجرد غياب للصوت، بل حضورًا كثيفًا لكل ما لا يُقال والظلام لم يعد يخفي الأشياء، بل يكشفها.

خرج أدم ذات ليلة، لا لأنه خطط لذلك، بل لأن قلبه لم يعد يحتمل البقاء في الداخل ، ساقاه قادته دون وعي، حتى وجد نفسه أمام بيتها ، الضوء الخافت المنبعث من نافذتها كان كافيًا ليشعل ألف احتمال، وألف خوف ، وقف هناك، لا يجرؤ على الاقتراب، ولا يستطيع الابتعاد.

كان يصغي...ليس للصوت، بل للأمل ، لكن الليل كان صادقًا أكثر مما يحتمل ، لم يسمع شيئًا ، لا خطوات، لا همسات، لا حياة ، فقط الريح تمر بين الأشجار، والساقية تواصل حديثها القديم مع الأرض، وكأن العالم كله مستمر... إلا هو.

ثم، فجأة، انفتح الباب ، خرجت أختها أزل، كأنها خرجت من قلب الصمت نفسه ، وقفت، نظرت إليه، بعينين لا تحتملان أكثر مما قيل لهما.

قالت بصوتٍ يكاد لا يُسمع : رفل تقول لك...سامحني.

لم تقل لماذا...؟

لم تضف شيئًا...لم تترك له فرصة للسؤال...جملة واحدة...لكنها كانت كافية لتهدم كل ما بناه من احتمالات، وكل ما تمسك به من أمل.

جملة واحدة...أثقل من الغياب نفسه ،عاد أدم، لكن العودة لم تكن عودة حقيقية ، كانت انسحابًا بطيئًا من شيء لم يعد يفهمه حين وصل البيت، بدت الحديقة مختلفة، رغم أنها لم تتغير.

شجرة المشمش... شجرة رفل...لم تكن كما كانت ،أزهارها التي كانت تملأ المكان حياةً، بدأت تتساقط، واحدةً تلو الأخرى بصمتٍ يشبه الغياب ،وكأن الشجرة فهمت قبله، وكأنها سبقت قلبه إلى الحزن.

جلس قربها، وضع يده على جذعها، وكأنه يبحث عن شيء ثابت في عالمٍ بدأ يتفكك ، كانت باردة، صلبة، صامتة... لكنها صادقة ، ولأول مرة، شعر أن الصمت يمكن أن يكون حضنًا.

نظر إلى الأغصان، إلى الأوراق التي بدأت تميل إلى الاصفرار، إلى الأزهار القليلة التي بقيت متشبثة، تقاوم السقوط وكأنها تعرف أن النهاية قريبة لكنها ترفض الاستسلام.

همس، لا للشجرة، ولا للهواء، بل لذلك الجزء منه الذي ما زال يؤمن : حتى لو رحلتِ... سأظل أنتظر.

ومنذ تلك الليلة... تغيّر كل شيء ، لم يعد الانتظار مجرد وقتٍ يمر، بل صار معنى يُعاش ، لم يعد الغياب فراغًا، بل صار حضورًا مختلفًا، حضورًا لا يُرى، لكنه يُحسّ في كل شيء ، في صوت

الريح، في حركة الماء، في ضوء الصباح، في تعب المساء ، في كل التفصيل الصغيرة...كانت هناك ، في الأحلام، كانت الشجرة تقف وحدها في الحقل، لكنها لم تكن حزينة.

كانت تمطر أزهارًا، ببطء، بهدوء، وكأنها تقول له : بعض الأشياء لا تبقى كما نريد... لكنها لا تختفي تمامًا.

استيقظ أدم يومًا، وقد أدرك شيئًا لم يتعلمه في أي كتاب : أن الحب ليس وعدًا بالحضور...بل قدرة على البقاء، حتى في الغياب وأن بعض الأشخاص لا يغادروننا حين يرحلون، بل حين ننسى...وهو...لم ينسَ.

جلس أدم قرب النافذة، يراقب العالم بعيون لم تعد كما كانت عينان تحملان ثقل الأيام واللحظات التي مضت، عينان تعرفان أن كل شيء حوله يتغير، حتى الريح التي كانت تمر من نافذته دون أن يلاحظها، صارت الآن تتوقف، كأنها تعرف أنه يراقبها، تنتظر أن تحمل له رسالة لم تكتب ، بعد لكنه لم يعد يبحث عنها في الخارج فقط، بل في داخله أيضًا، في أعمق زوايا قلبه، حيث اختبأت الذكريات القديمة، والضحكات التي لم تعد تصدح والصمت الذي أصبح صديقه الوحيد.

وفي تلك اللحظة، فهم أخيرًا : أن الغياب قد يكون أقسى أشكال الحضور، حضور لا يُرى، لكنه يُحس، يترك أثره في كل تفصيل من تفاصيل الحياة، في ضحكة ضائعة، في كلمة لم تُقال، في لحظة شعور تمر مرور الكرام لكنها تُغير كل شيء ، وأن الحب الحقيقي لا يُقاس بمن بقي، بل بمن ترك أثرًا، بمن زرع في قلبك شعورًا لم يعد بالإمكان نسيانه، شعورًا يجعل من كل ذكرى، مهما كانت صغيرة، عالَمًا كاملاً قائمًا بذاته.

ابتسم بهدوء، ليس ابتسامة فرح، بل ابتسامة إدراك، إدراك أن الألم جزء من الحب، وأن الغياب علمه أن يكون حاضرًا حتى في غياب الآخر. نظر إلى السماء، إلى الأشجار، إلى الطريق الذي يمر منه كل يوم، وكل شيء بدا مختلفًا الآن، كما لو أن العالم كله أصبح يهمس له بسر صغير، سر يقول : « الحب لا يموت، الحب يتشكل، يتغير، لكنه يبقى حاضراً، حتى لو لم تعد هناك من يشاركك اللحظة » أغمض عينيه لحظة، وشعر بأن قلبه أصبح أوسع، أهدأ، أكثر حكمة ، لم يعد يبحث عن التعويض، لم يعد ينتظر العودة، لم يعد يلحّ على اللحظة التي قد لا تأتي، بل اكتفى بالشعور، بالشعور الصافي الذي تركه في داخله من لم يكن حاضرًا، والذي أصبح الآن جزءًا منه، جزءًا لا ينفصل عن

وجوده، وهكذا، تعلم أن بعض الغيابات تمنح الحضور معنى، وأن بعض اللحظات، حتى لو مرت بلا كلام، تبقى خالدة في القلب أقوى من أي كلام ، وأعمق من أي لمسة يمكن أن تُحس.

الحُبُّ لَا يَمُوتُ

الغِيَابُ امْتِحَانُ القُلُوبِ

بدأت الشجرة تميل قليلًا، ميلة لا يلاحظها إلا من عرفها منذ البداية، من عرف كل التفاصيل في جذعها، في أغصانها، في أوراقها، في صمتها كان الميل خفيفًا، شيئًا شبه غير مرئي للعين العادية، لكنه كان كافياً ليشعر به قلب من أحبها ورعاها منذ أن كانت براعم صغيرة تتشبث بالأرض كما يتشبث القلب بالأمل.

وقف الحاج محمد طويلًا، يضع يده على الجذع البارد، كأنها محاولة لتثبيت الشجرة أمام عالمه، أمام نفسه، أمام كل ما يتهدده من انهيار داخلي ، نظر إلى النتوءات الصغيرة التي ظهرت عند الجذور، إلى الأماكن التي بدا فيها الجلد الخشبي متشققًا، وكأن الشجرة تتنفس بصعوبة، وتئن من ثقل الحياة الذي حملته طوال سنواتها. قال بصوت هادئ، لكنه مشحون بالقلق : الجذر أختنق...توقف أدم عن التنفس للحظة، شعر بأن الهواء أصبح أثقل من المعتاد، وكأن كُل الأكسجين في الغرفة قد انكمش في هذه الكلمة الواحدة ، قال بصوت مرتعش، وهو يحاول أن يخفي خوفه : يموت...؟

أجاب الحاج محمد بلا تسرع، بلا صراخ، بلا كلمات كبيرة، كأن الحكمة وحدها تكفي لتشرح الحزن : ليس فوراً... لكن إذا تعب الجذر، كل الشجرة تتعب... وكل شيء يبدأ بالتعب.

نظر أدم إلى الجذع، إلى الأوراق الصفراء التي تمسكت بغضب بالمطر والعواصف، إلى الأزهار البيضاء التي تحملت كل صقيع وكل حرارة، وشعر بشيء جديد، شيء لم يعرفه من قبل : شعور بأن حياته، وحياتها، وحياته، كلها مرتبطة بهذا الجذر الصغير، بهذه الشجرة، بهذا المكان.

وفي اليوم نفسه، وصل إليه خبر آخر، أصعب من ميل الشجرة وأوراقها الصفراء : أم رفل الحاجة نورة نُقلت إلى المستشفى في المدينة، رفل ستسافر معها، لم يودعها أدم، لم يجد الفرصة حتى لتبادل نظرة واحدة، كأن كل ما بناه من صبر، من حب، من انتباه، قد تبخر في لحظة واحدة.

جلس أدم في غرفته لوقت طويل، يسمع صدى قلبه يختلط بصوت المطر الذي بدأ يغسل كل شيء ، لم يكن المطر مجرد ماء؛ كان صوت فراغه، صوت خوفه، صوت كل ما فقده قبل أن يدركه.

بدأ المطر بالازدياد في الغسق، غزارة لم تهدأ، كل قطرة كأنها تحفر أثرها في قلبه قبل الأرض، تروي حزنه، وتزيد شعوره بالفراغ كانت

الأرض تحت قدميه تتجاوب مع كل خطوة، كل اهتزاز كأنها تعكس حجم الألم والقلق الذي يختبئ في قلبه.

في الصباح، خرج أدم إلى الدار ، خطواته كانت بطيئة، كأن الأرض نفسها حاولت أن تهزمه قبل أن يصل ، نظر إلى شجرة المشمش ورأى جزءًا من الأغصان قد اسودّ ، لم تسقط، لكنها كانت كأنها فقدت القدرة على التنفس، على الصمود ، الأوراق الباقية تلوّنت بالحذر، بالقلق، بالحزن، كأنها تعرف أن شيئًا ما لم يعد كما كان، كأنها تحمل كل أثر الحب الذي لم يُحسن أدم وضعه في مكانه الصحيح.

وقف أدم طويلًا أمامها، يحدّق بكل فرع، بكل ورقة، بكل زهرة صامدة ، حين أغمض عينيه، شعر بأن كل شيء قد أصبح هشًّا: الوقت، الحب، الصبر، الغياب، المطر، وحتى قلبه نفسه.

خطرت له فكرة لم يجرؤ على قولها، شيء صغير لكنه قاتل داخلياً: هل دفعتُ أنا كل هذا...؟

هل كان قلقي، حبي، انتظاري، خجلي، كل شيء، سببًا لما حدث...؟

هل كان حضوري، صمتي، حتى ابتسامتي، جزءًا من هذا الألم الذي أصاب شجرة المشمش، الذي أصاب رفل، الذي أصاب قلبه...؟

جلس بالقرب منها، يضع يده على الجذع البارد، يحسّ نبض الحياة الباقي فيه، كأن كل شيء ينبض مع الجذر، مع الشجرة، مع صمته العميق ، فتح دفتره، وكتب بدل الملاحظات، بدل المعادلات، بدل أي شيء آخر : « الحب... إذا لم يجد مكانًا آمنًا، يتحوّل إلى حمل ثقيل حتى على الأشياء البريئة...وحتى على القلوب التي نحاول حمايتها وحتى على الزهور التي نحبها »

ظل أدم هناك طويلًا، يسمع خرير الساقية، يراقب قطرات المطر تتساقط من أغصان بعيدة، يشمّ رائحة الأرض المبللة، يشعر بالبرد، بالقلق، بالوحدة، وبأن كل يوم يمر بهذه المشاعر يصبح درسًا جديدًا : درس عن المسؤولية، عن الحب، عن الانتظار، عن الغياب، عن هشاشة الحياة، وعن ما لا يُصلَح أحيانًا مهما حاولنا.

جلس طويلًا، يفكر في رفل، في شجرة المشمش، في كل شيء كان يمكن أن يكون مختلفاً، في كل كلمات لم تُقل، في كل خطوة لم تُخطَ، في كل لمسة لم تُمنح، وفي كل انتظار لم يُكمل ، مع كل

لحظة، شعر بأن قلبه يزداد ثقلًا، كأن الحزن يملأ كل فجوة فيه ويترك مساحة صغيرة فقط للوعي بأن الحياة ليست دائمًا عادلة وأن الحب، مهما كان صادقًا، لا يضمن النتيجة ، ومع غروب الشمس، شعرت السماء وكأنها تتمايل بالحزن نفسه الذي يملأ قلب أدم ، شعر أن الغياب أصبح جزءًا من الحب نفسه، جزءًا من الاختبار الذي لا يرحم، جزءًا من الحياة... التي أحيانًا لا تُصلَح، مهما حاولنا.

وقف أخيرًا، يلمس شجرة المشمش للمرة الأخيرة قبل أن يبتعد يشعر أن هناك شيء صغير يختبئ بين جذورها، شيء لم يُفهم بعد، شيء يحتاج إلى صبر أكبر من عمره، وأكثر من قدرته على التحمل ، شيء يعلم أنه مهما فعل، لن يستطيع تغييره، ولن يستطيع إصلاحه ، ومع هذا، ظل يحدق فيها لفترة طويلة، يهمس بصوتٍ شبه خافت، كأنه يصلي، أو يكافح الصمت: سأحاول... على الأقل أن أفهم.

المطر لم يتوقف، لكن أدم شعر لأول مرة أن كل سقوطٍ لقطرة ماء يحمل رسالة، ليس بالقدر الذي يحطم، بل بالقدر الذي يعلّم : أن الحياة والحب مسؤولية، وأن بعض الأشياء...لا تُصلَح، لكنها تُعاش، وتترك أثرًا أبديًا في القلب...وأن الجذر مهما تعثر، يظل

هناك أمل جديد، يربط الماضي بالحاضر، ويصنع مستقبلاً، ولو بصعوبة، ولو بصمت، ولو بمطر لا ينتهي ، وأن الجذر مهما تعثر يظل هناك أمل جديد، يربط الماضي بالحاضر، ويصنع مستقبلاً ولو بصعوبة، ولو بصمت،

جلس أدم لفترة طويلة، يحدق في جذور الشجرة، يرى في تشققاتها خيوط الزمن، خيوط حياتها، خيوط كل شيء مرّ به في حياته كل ثغرة في الخشب كانت كحكاية صغيرة، كل نبتة صغيرة خرجت من الأرض كانت كرسالة صامتة تقول له : « لا تيأس حتى لو بدا كل شيء مستحيلًا ».

شعر أدم فجأة بأن الشجرة ليست مجرد نبات، بل كائن حي يتنفس مع الزمن، يتألم مع الغياب، يفرح مع المطر، ويحزن مع قلبه كانت أوراقها الصفراء تتمايل مع الريح بخجل، وكأنها تحاول أن تخبره شيئًا لم يفهمه بعد ، كل أوراق متساقطة كانت رسالة، كل زهرة بيضاء كانت صلاة صغيرة للحياة، لكل من أحبها أو فقدها أو تركها.

رفع رأسه ونظر حوله، رأى القرية من بعيد، البيوت، السواقي الطرقات المبتلة، الأطفال الذين يلعبون تحت المطر، والطيور التي تحلق مترددة بين الغيوم ، شعر بأن كل هذه الأشياء مرتبطة

ببعضها، كما هو الحال في جذور الشجرة، كل خطوة، كل كلمة كل غياب، كل لقاء، له تأثير لا يراه البشر دائمًا، لكنه موجود.

فكر في رفل، في ابتسامتها الصغيرة التي لم يرها منذ أيام، في صمتها الذي أصبح ثقيلًا كما الصمت الذي يشعر به أمام الشجرة ، تساءل في نفسه : هل هي تشعر بما أشعر به...؟

هل تعرف أن كل حب صغير، كل اهتمام، كل شعور حقيقي يترك أثرًا حتى لو لم يُظهر...؟

جلس على الأرض، وضع يده على التراب الرطب، يحس بنبض الأرض، بنبض الجذر، وكأن كل شيء ينبض مع قلبه ، شعر بشيء جديد : مسؤولية أعمق من أي شيء شعر به من قبل مسؤولية الحياة، مسؤولية الحب، مسؤولية الانتظار والصبر ، وفجأة فهم أن الحب ليس فقط فرحًا، وليس فقط حضورًا، بل هو صبر هو مراقبة، هو تحمل الألم دون أن يسقط قلبك، هو أن تظل هنا حتى لو كان الغياب أطول من أي وقت مضى.

ظل هناك ساعات طويلة، يسمع خرير الساقية، يراقب قطرات المطر تتساقط من أغصان بعيدة، يشعر بأن كل قطرة تحمل حكمة، كل صوت ماء يحمل درسًا، كل ريح تمر تحمل رسالة :

الحياة مستمرة، مهما تألمت، مهما ضعفت، مهما شعرت بالضياع.

وفي لحظة، تذكّر طفولته، الأيام التي كان يركض فيها بين الحقول يلعب تحت الشمس والمطر، كان يشعر بأن العالم لا نهاية له، وأن كل شيء ممكن ، والآن، بعد كل ما مرّ به، شعر بأن هذه الذكريات ليست مجرد ذكريات، بل جذور لنفسه، جذور تشبه جذور الشجرة، لا يمكن أن تموت، مهما تألمت، مهما ضعفت فهي جزء منه، من حياته، من حبه، من صمته، من انتظاره.

التفت إلى الشجرة مرة أخرى، وابتسم ابتسامة صغيرة، كانت مليئة بالحزن، بالحب، بالأمل، بالمسؤولية، وبكل شيء لم يعرف كيف يصفه بالكلمات ، فهم فجأة أن كل شيء يمكن أن ينكسر يمكن أن يموت، يمكن أن يبتعد، لكن هناك شيء لا يموت : القدرة على الحب، القدرة على الانتظار، القدرة على الشعور بكل شيء بعمق، حتى لو لم يكن هناك من يسمعك أو يراك.

جلس أدم حتى غابت الشمس، والغيوم بدأت تتفتت تدريجيًا والرياح هدأت، والمطر أصبح خفيفًا، لكنه لم يتوقف تمامًا، وكأن الطبيعة كلها تقول له : « حتى لو أصبح كل شيء هادئًا، لن

ينتهي الدرس، لن ينتهي الألم، ولن تنتهي الفرصة للتعلم، ولن ينتهي الأمل ».

وفي تلك اللحظة، شعر بشيء يتحرك في داخله، شيء صغير لكنه قوي : إرادة للبقاء، إرادة للحب، إرادة لفهم كل شيء، إرادة لأن يكون حاضرًا حتى لو لم يكن هناك أي شيء يضمن له النجاح أي شيء يضمن له النتيجة، أي شيء يضمن له رؤية رفل مرة أخرى ، فهم أن الحب، كما الشجرة، يحتاج إلى صبر طويل، يحتاج إلى عناية، يحتاج إلى مشاهدة صغيرة، يحتاج إلى قبول أن كل شيء هش، وأن كل شيء قد ينكسر، لكنه لا يزال يستمر.

وقف أخيرًا، لمس الجذع البارد مرة أخرى، أخذ نفسًا عميقًا وشعر بأن جزءًا من قلبه أصبح مرتبطًا بالشجرة أكثر من أي وقت مضى، وأن جزءًا من روحه أصبح يعلم أن الغياب، والفقد، والألم ليست نهاية، بل بداية لفهم أعمق، لفهم أوسع، لفهم أن كل شيء في الحياة مرتبط بجذر صغير، بصمت صغير، بلمسة صغيرة، وبحب كبير لا يعرف الحدود.

أغمض عينيه، وسأل نفسه بصوت شبه مسموع : « هل سأستطيع أن أحب، وأن أتحمل، وأن أعيش كل هذا الألم، وأن أتركه يتحول إلى شيء جميل...؟ »

ابتسم بهدوء، لأن الإجابة كانت واضحة في صمته، في المطر، في الجذور، في كل شيء حوله : « نعم، أستطيع...وسأستمر، مهما كان الطريق طويلاً، مهما كان المطر غزيرًا، ومهما كانت الحياة قاسية...سأستمر ».

صُرَاخُ الصَّمتِ

شَجَرَةُ المِشمِشِ

تَعرِفُ كُلَّ شَيءٍ

الأيام الأولى بعد غياب رفل لم تكن كصدمة مفاجئة، ولا كصاعقة تهز الأرض تحت الأقدام، لكنها كانت صمتًا عميقًا صمتًا قابلًا للتمدد والتمدد، صمتًا يبتلع كل لحظة ويجعلها ثقيلة على الصدر صمتًا يمكن ملؤه بالكتب، بالمشي بين الحقول بالتأمل في السماء، أو بالجلوس بلا هدف، محاولاً فهم ما حدث محاولاً الإمساك بالهواء الفارغ الذي تركته وراءها.

مع مرور الأيام، بدأ كل شيء يتحول إلى تذكير: كل صوت ماء في الساقية، كل نسمة عابرة بين الأشجار، كل ظل يتحرك على الأرض...حتى الريح نفسها صارت تهمس باسمها بصمت ،لم يعد الصمت مجرد غياب، بل صار حضورًا مؤلمًا، حضورًا يختبئ في كل تفاصيل المكان، يطلّ من كل زاوية، يترك أثره على كل شيء في القرية.

ذهب أدم إلى النهر، ذلك النهر الذي لم يكن مجرد ماء وتراب، بل كان مسرح كل لحظاتهما المشتركة، شاهدًا على كل ابتسامة، كل

نظرة، كل همس، كل شعور لم يُنطق به بعد ، كانت الحجارة الصغيرة على حافة الماء كأنها تحفظ خطواته، تذكره بصوته وهو يضحك، وتخفي صمت رفل بين طياتها.

جلس على نفس الحجر البارد، المبتل ببقايا المطر القديم ، أخرج من جيبه عصا صغيرة، وبدأ يرسم دوائر في الطين...دائرة، ثم أخرى، ثم أخرى...حتى اختلطت الرسومات ببعضها ، كل دائرة تمثل حلمه بها، وكل فراغ بينها يمثل الفراغ الذي تركه رحيلها الفراغ الذي يبتلعه صمت لا يملؤه شيء.

ظل يرسم دون أن يشعر بالزمن، حتى جاء والد رفل الاستاذ عواد من بين الأشجار ، ظهوره كان هادئًا، طبيعيًا، كأنه جزء من المشهد نفسه ، لم يصرخ، لم يضغط، لم يأمر، بل قال بهدوء : أمك بحاجة لها...وستبقى معها فترة...

وقف أدم صامتًا، لم يبتسم، لم يتحرك ، قلبه يهتز داخله كأن شيئًا ما انكسر، لكنه رأى كل شيء بوضوح، كما لو أنه يرى العالم لأول مرة : المسافة بين قلبه وقلبها، الأثر الكبير الذي تركته قبل أن تغادر، القدرة العجيبة التي تمتلكها على ملء حياته دون أن تكون موجودة فعليًا.

جلس طويلًا على حافة النهر، يتأمل انعكاس السماء في الماء يحاول رؤية ظلها في موجة صغيرة، في حركة ورقة على الشجرة، في انعكاس الشمس على سطح النهر...لكن كل شيء بدا فارغًا صامتًا، كأن العالم كله توقف عن التنفس.

وعند عودته إلى البيت، وجد شجرة المشمش أكثر هشاشة من أي وقت مضى ، الأزهار المنقطة بالأحمر والوردي بدأت تتساقط واحدة تلو الأخرى، كأنها تبكي رحيل رفل بصمتها ، الجذع الجوزي الذي كان يبدو كعروس، صار باهت اللون، خالٍ من الدفء الذي اعتاد أدم رؤيته كل صباح ، لم يعد يهمس بالفرح، لم تعد الأوراق تميل عند اقترابه، بل صارت متجمدة، مترددة، وكأنها فقدت القدرة على الحركة، على الحب.

جلس أدم قرب شجرة المشمش لساعات طويلة، يمسح الغبار عن بعض الأزهار الباقية، يتحدث إليها بصوت منخفض : لا تتركيني... لا تتركني وحدي...لكن شجرة المشمش لم ترد، ورفل لم تأتِ، والقرية كانت صامتة كأنها تعرف أن شيئًا ما تغيّر للأبد.

في الليل، جلس عند النافذة، ينظر إلى السماء، إلى النجوم، إلى القمر، إلى الساقية، إلى الحقول، إلى كل الأماكن التي شهدت صمتهما معًا ، فكر في كل التفاصيل : كيف لشخص واحد أن

يترك أثرًا بهذا الحجم ، دون أن يلمسه، دون أن يقول كلمة، دون أن يكون حاضرًا...؟

أخرج دفتره، وبدأ يكتب ، الكلمات تتدفق ببطء، لكنها صادقة كأن كل حرف يختزل الألم كله : الرحيل أحيانًا لا يُفسَّر، لا يُشرح، ولا يُستعاد ، أحيانًا يترك كل شيء هشًا: الحب، الحياة القلب، حتى الأشياء التي نحبها ،كل شيء يصبح امتحانًا... حتى الصمت، حتى انتظار شيء لم يعد موجودًا، وحتى الشجرة التي أحببتها تحزن معي لأنها تعرف أن بعض الأشياء لا يمكن إصلاحها أحيانًا.

جلس طويلًا حتى نام مع دفتره بجانبه، يحلم بالنهر، بالشجرة بظل رفل الغائب، يحلم بالفراغ الذي أصبح حاضراً أكثر من أي شيء آخر ، وفي أحلامه، كانت الشجرة تتحدث إليه بصوت خافت، أوراقها تموج كأنها تحاول نقله إلى مكانها، إلى رفل، لكن لا شيء يمكن أن يملأ الفراغ بالكامل ، كل شيء صار امتحان قلبه، صبره، قدرته على مواجهة الغياب، على فهم أن بعض الأشياء، حتى لو أحببناها بكل قوتنا، لا يمكن أن تُصلح أحيانًا.

وفهم أخيرًا أن البداية الحقيقية لفهم الحياة، هي القبول بأن الحب أحيانًا يكون أكثر من مجرد حضور، وأن الرحيل ليس نهاية كل

شيء، بل مجرد مساحة فارغة يحتاج القلب والشجرة والنهر ليعتادوا عليها...حتى لو كان الابتعاد مؤلمًا.

وبينما يغفو أدم، كانت خيوط الفجر الناعمة تتسلل من بين ستائر غرفته، تداعب وجهه برفق، كما لو أن الطبيعة نفسها تعرف كل شيء عن قلبه، عن صمته، عن الفراغ الذي خلفه الغياب ، الضوء الأول كان باهتًا، لكنه صافي، يلمس الأرض برقة يرسم خطوطًا ذهبية على الساقية، على الحقول، وعلى الجذوع التي تصارع البرد لتظل واقفة ، في الخارج، بدأ الطائر الأول يغرد صوته هش، قصير، لكنه يحمل في نغماته صبر الأرض، صبر الشجرة، صبر القلب الذي لم يجد بعد سببًا ليعود للنبض الطبيعي. أدم شعر بصدى هذا الغناء في داخله، كأن الطائر يذكره بأن الحياة تستمر، حتى لو لم تعد حبيبته هناك لتملأ المكان بالضحك والهمسات.

اقترب من النافذة، ونظر إلى الشجرة، إلى أوراقها التي كانت تتمايل بخفة في الهواء البارد، وكأنها تهمس له : « أنا معك، ولو لم تكن موجودة، سأبقى هنا لأذكرك بأن الجمال والرحيل جزء واحد من الحياة نفسها » .

جلس على الأرض، ظهره مسندًا على الإطار الخشبي للنافذة وترك عينيه تتجول بين التفاصيل الصغيرة : قطرات الندى على الحشائش، بريق الشمس على الساقية، الحركة الخفيفة للأعشاب التي تعانق الريح، وحتى الظلال الطويلة للأشجار التي تمتد على الأرض.

كل شيء حوله صار حاملاً لذكريات رفل، لصوتها، لنظرتها لابتسامتها التي كانت تنير كل صباح ، وكان يتذكر كيف كانت تضحك عند سقوط ورقة على كتفها، كيف كانت تتحدث إليه بصوت منخفض حين يشعر بالخوف أو القلق...؟

وكيف كانت تلملم العالم من حوله بلا مجهود، بطريقة تجعل كل شيء يبدو أهدأ، ألين، وأقرب للراحة...؟

لكن الغياب علمه شيئًا آخر : أن الفراغ ليس مجرد غياب جسد بل هو مساحة يمكن أن تتوسع بلا حدود، وأن القلب يمكنه أن يتعلم العيش مع هذه المساحة، أن يتنفس فيها، أن يفهمها، ويجد فيها أحيانًا معنى لم يكن يعرفه قبلًا ، أدم أمسك دفتره مرة أخرى وأخرج القلم، لكنه لم يبدأ بالكتابة بعد ، تركه يطفو بين يديه يراقب الحبر الفارغ، كأن الصفحات البيضاء تهمس له : « كل شيء يبدأ هنا... حتى لو بدا الفراغ كاملاً ».

جلس طويلًا، يسمع صوت الريح، صوت الماء في الساقية، حركة أوراق الشجرة، ويشعر بأن كل شيء صامت، لكنه صامت يتحدث. صمت يعلّم، صمت يوجع، صمت يزرع الصبر ، شعر بقلبه ينبض ببطء، كما لو أن كل خفقة تحاول أن تتفهم الغياب أن تستوعب أثره، أن تعد نفسها لتزهر من جديد ، ثم بعد فترة طويلة، بدأ النور يتغير، صار أكثر دفئًا، أكثر إشراقًا ، الشمس ارتفعت ببطء فوق الأفق، ملأت القرية بألوان ذهبية ووردية، وكأن العالم كله يقول له : « حتى بعد الفقد، هناك بداية جديدة، حتى بعد الألم، هناك يوم جديد ينتظرك ».

وقف أدم، مد يديه نحو الشمس، شعر بالحرارة تتسلل إلى جلده شعر بأن قلبه، مثل الشجرة، يمكن أن يتعلم كيف يزهر مرة أخرى...؟

لكن ليس بسرعة، ليس بلا صبر، وليس بلا حذر. الزهور التي تتفتح بعد الشتاء تعلمه أن الجمال لا يعود دفعة واحدة، وأن الحب، حتى بعد الرحيل، يحتاج وقتًا ليزهر، يحتاج صمتًا، يحتاج وفاءً للذكريات قبل أن يحتضن الجديد.

جلس عند الساقية، ينظر إلى انعكاس الشمس على الماء، يلمس سطحه بأطراف أصابعه، ويحاول تخيل ظل رفل يبتسم له من بعيد

يحاول تخيل أن كل مكان كان شاهدًا عليهما يظل حيًا في ذاكرته حتى لو لم يعد حقيقيًا أمام عينيه ، ثم أغلق عينيه، واستسلم للهدوء وسمح لكل شيء بأن يتسلل إليه :الفراغ، الذكريات، الألم الصبر، والأمل ، وفي هذه اللحظة، شعر بشيء داخلي يتحرك: خيط خفيف من الأمل، ينبع من قلبه، من الشجرة، من الطبيعة كلها، يخبره أن الحياة مستمرة، أن الأيام القادمة ستملأ الفراغ ببطء، وأن قلبه، مهما تألم، سيتعلم أن يزهر مرة أخرى...لكن ببطء، بحذر، وبكل صمت.

غيمةُ الشجرةِ

كلُّ زهرةٍ تتساقطُ

تحملُ حكايةَ قلبٍ

بعد يوم طويل، يوم بدا أثقل من كل الأيام السابقة، جلس أدم على الطاولة الأخيرة في الصف، تلك الطاولة التي لم يختارها صدفة، لكنها كانت تمنحه شعورًا غريبًا بالأمان هنا، بعيدًا قليلًا عن أصوات العالم، بعيدًا عن النظر الغريب للآخرين، يشعر أنه يستطيع سماع صوته الداخلي، قلبه المتلعثم، صمت نفسه الذي بدأ يزداد ثقلاً مع كل غياب رفل.

أخرج دفتره القديم، ذو الغلاف الباهت، الصفحات التي امتصت كل أسراره السابقة، وكان يشعر الآن أن تلك الصفحات وحدها تستطيع فهمه، وحدها تستطيع تحمل ما لم يستطع أحد قوله. جلس طويلًا، يحدق في الورق الفارغ أمامه، وفمه يهمس بصمت وكأن الكلمات نفسها تخاف أن تخرج : رفل...!

بدأ يكتب خطابًا لم يرسله، خطابًا صامتًا، خطابًا يشبه قلبه منذ أيام، خطابًا لكل ما لم يجرؤ على قوله، لكل الخوف، لكل الغيرة لكل الحب الذي لم يعرف كيف يُعلن.

كتب بصوت داخلي مرتجف، كل حرف يتأرجح بين الحبر والهواء : « رفل...لم أعرف أن الحب يمكن أن يكون هادئًا وصاخبًا في آن واحد ، لم أعرف أن الغياب يمكن أن يترك شجرة تموت قبل أوانها...وأن قلبي يمكن أن يختنق كما يختنق الجذر تحت التراب ».

رفع رأسه للحظة، نظر إلى نافذة الفصل، إلى شجرة المشمش الباهتة، الأغصان التي بدأت تميل ببطء، الأزهار التي لم تستسلم بعد، وكأن الشجرة نفسها كانت تسمعه، وكأنها تقول بصمت : أعرف كل شيء...أعلم خوفك...أعلم حبك...أعلم كل شيء جلس ثانية، قلبه يختلط بالخوف والحب والحنين والغيرة، وكل شعور يصرخ بصمت، كما لو أن الكلمات لم تعد كافية ، همس لنفسه، بصوت يكاد لا يسمعه أحد :حتى أنت... تحسدينها... على وجودك ، الإشارة كانت للشجرة، للأزهار، للحياة التي لم تعد كما كانت، لكن قلبه كان يعرف أن جزءًا من الغيرة صامت أيضًا، جزء من القلق، جزء من الحب نفسه، الشجرة لم تمت بعد لكنها دخلت مرحلة جديدة، مرحلة الترقب، الانتظار الصامت الحذر من أي خطأ صغير قد يقتل ما تبقى من الحياة فيها... وهكذا كان قلب أدم...مثل الجذر، مثل الأغصان، مثل

الأوراق...مهتزًا، مترددًا، ممتلئًا بالحب، بالخوف، بالحنين، بالغيرة بالانتظار...لا يمكن السيطرة عليه، ولا يمكن تجاهله.

أدم جلس طويلاً، يمسح الغبار عن الأوراق، يلمس الزهور الصغيرة التي تسقط على التراب، يشم رائحتها الخفيفة، كأنها رسائل صامتة من رفل، أو من الشجرة نفسها، تقول له : لا تيأس...لا أحد يترك الحب الحقيقي بسهولة...حتى لو أبتعد عنك ، ثم عاد إلى دفتره، وأكمل : « أريدك أن تعرفي أن كل ما أحببتك فيه، هو ما جعلني أخاف من المطر، من الماء، من أي شيء قد يؤذيك... أحيانًا أشعر أن كل خطوة أخطوها، كل كلمة أنطقها، كل نفس أتنفسه، قد يؤذيك بطريقة أو بأخرى...لم أدرك من قبل أن الحب أحيانًا يكون اختبارًا للصمت...أكثر من الكلام... وأكثر من الغياب ».

رفع رأسه ثانية، نظر إلى شجرة المشمش، شعر بالاتصال الغريب معها، كما لو أن الأغصان تحميه، كما لو أن الجذر يقول له : « حتى لو اختبرت الألم، حتى لو تألم قلبك، ستبقى قادرًا على الحب...قادرًا على الانتظار...قادرًا على فهمه ».

جلس طويلًا، المطر بدأ يهطل خفيفاً على أوراق الشجرة، قطرات تتساقط على التراب، يلمسها بأطراف أصابعه، يشعر بأنها دموع

العالم، دموع قلبه، دموع الحب الصامت ، كل قطرة كانت كرسالة تقول له: « الحب موجود، حتى لو لم تراه عيناك...حتى لو لم تسمعه أذناك...حتى لو لم يقبله أحد سواك ».

أغلق أدم الدفتر برفق، شعر بالراحة لأول مرة منذ أيام، لكن الراحة لم تكن من الخارج، لم تكن من أحد، لم تكن من خبر جيد، لم تكن من ابتسامة أو لقاء، بل من شيء أعمق : من معرفة أن الحب موجود، من معرفة أن الغياب لن يمحو كل شيء من معرفة أن الشجرة لم تمت، ومن معرفة أن قلبه، رغم كل الخوف والغياب، لا يزال ينبض في الخارج، بدأت الريح تتحرك، تحرك الأغصان، تحرك بعض الأزهار المتبقية، وصوتها خافت لكنه واضح، كأنه يهمس له : أنتظر... بعض الأشياء تحتاج وقتاً... بعض الأشياء لا يمكن الإستعجال فيها...حتى الحب...حتى الشجرة...حتى القلوب.

آدم جلس طويلًا، ينظر إلى السماء، إلى الشجرة، إلى الغياب، إلى الانتظار الذي صار جزءًا من قلبه ، فهم أخيرًا أن الانتظار لم يعد مجرد صبر، بل أصبح بداية لفهم الحب الحقيقي، الحب الذي لا يُقاس بالحضور، ولا بالكلمات، ولا باللقاءات، بل بالصمت بالقلق، وبانتظار شيء لا يُصلَح بسهولة...حتى لو كان هو

نفسه، أحدم، الذي ينتظر رفل، ينتظر حياته، ينتظر مشمشًا لم يعد كما كان.

ومع سقوط آخر زهرة في الأفق، ومع الريح التي تحرك الأغصان ببطء، شعر أدم بأن قلبه أصبح أكثر وعيًا، أكثر صبرًا، أكثر قدرة على الحب بصمت، وأكثر استعدادًا لقبول الغياب المؤقت، وقبول الانتظار الطويل، وقبول كل ما لا يمكن تغييره.

كان يعلم أن قلبه، رغم كل الألم والخوف، سيظل ينبض...كما ينبض الجذر تحت التراب...كما تتأرجح الأغصان في الريح... كما تتشبث زهرة صغيرة بالحياة، حتى آخر لحظة ، سافرت رفل مع أمها إلى المدينة لم يكن هناك وداع كبير، لم تكن هنا

دموع صاخبة، لم تكن هناك رسائل مطولة تُسجّل على الورق أو في الهاتف ، رحلت ببساطة، كما تأتي الرياح أحيانًا، ولا تترك أثرًا سوى حركة خفيفة في أوراق الشجر ،أدم بقي وحيدًا، واقفًا على حافة الأيام، بين صمت القرية الذي يعرف كل شيء، وبين قلبه الذي لم يعد يعرف شيئاً.

لم يترك لها أدم رسالة، ولم تصل أي رسالة منه ، لم يعرف كيف يكتب، ولم يعرف كيف يُوصل صوته من بعيد، من قلبه الصغير

الممزق بين الشوق والخوف ، كل يوم كان يمشي في القرية، يتفقد كل زاوية، كل حجر، كل شجرة، كل أثر صغير...

كأنه يبحث عن شيء يربطه بها، شيء قد يبقي أثرها حياً، ولو لم تكن موجودة ، كانت عيونه تمسح المكان، تمر على كل شيء، لكن قلبه كان يمر على كل شيء بعين واحدة فقط : حيث يمكن أن يظهر ظلها فجأة، حيث يمكن أن يلمح إبتسامة خافتة في الضوء أو صوتاً مخفي في نسيم الصباح ، في البيت، كان صمت الأب الحاج محمد ، أكثر ثقلًا من أي كلمات ، لم يصرخ، لم يلوم، لم يحاول أن يواسي ، كان صامتًا، مكتفيًا بالنظر، بثقل كل كلمة لم تُقل، وبالحذر من أن يزيد الصمت أثقالًا على قلب أدم ، أحيانًا كان أدم يشعر بأن الأب يراقبه بعينين تريان كل شيء، لكن لا تقولان شيئًا ، كأنهما تكتفيان بحمل الألم في صمت، بلا تفسير بلا حل.

أدم لم يكن يعرف كيف يعبر عن حبه...؟

لم يكن يعرف كيف يحمي ما تبقى من قلبه...؟

كيف يفرغ الشوق دون أن يجرح نفسه أو الشجرة...؟

وكيف لا يقتل الشجرة بفرط شغفه...أو يقتل حبه لرفل بالقلق المفرط...؟

كان يقف أمام المرآة ساعات طويلة، يحاول أن يجد الكلمات يحاول أن يجد طريقة ليقول لنفسه، أو للعالم، أو الى رفل، أو حتى للشجرة نفسها، ما يشعر به، لكنه كان يجد أن كل كلمة صغيرة كل محاولة للتعبير، تتبخر في الهواء مثل دخان خفيف.

جلس أدم عند شجرة المشمش، المكان الوحيد الذي يبدو أنه يفهمه، المكان الذي ظل يتنفس معه كل مشاعره منذ البداية وضع يده على الجذع الجوزي البارد، شعور بالدفء الخافت كان ينبعث من قلب الخشب، كأن الشجرة نفسها تتحدث بلغة لا يفهمها أحد سواه، شعر أن الجذع يئن تحت يده، كأن الجذع نفسه يحمل الحزن الذي يزحف في قلبه، كأن الأغصان تقول بصمت : « حتى أنا أشعر بغيابها...حتى أنا أتألم »

نظر إلى الأزهار البيضاء المنقطة بالوردي، وتذكر الأيام التي كانت رفل تأتي فيها لتجلس تحت الشجرة، تضحك، تلمس الأغصان تلمس قلبه بلا علم منه، بلا تصريح، بلا كلمات ، كان كل تفصيل صغير منها محفورًا في قلبه، مثل نقوش دقيقة على الحجر.

وقال لنفسه بصوت خافت، كما لو كان يهمس إلى الهواء، إلى الغياب، إلى الشجرة نفسها : الآن...فهمت ، كل شيء حساس...كل شيء يمكن أن يموت...إذا أحببناه أكثر من

اللازم...إذا دللناه أكثر من اللازم...إذا حملناه في قلبنا دون وعي وفي تلك الليلة، جاء المطر، لم يكن المطر هدية، ولم يكن صديقًا بل اختبارًا...اختبارًا للحب، للحياة، للصبر، لكل شيء صغير حاول أدم أن يحميه ، لم يكن يعرف متى بدأت الأمطار، لكنه شعر بها أولًا على وجهه، على شعره، على يديه ، ثم بدأت تنزل بغزارة، تتساقط على الأرض، على الحصى، على الزهور التي بقيت متشبثة، وعلى الأغصان الضعيفة، وعلى قلب أدم، الذي بدأ يشعر بأن ثقلًا داخليًا بدأ يخف مع كل قطرة.

أغصان الشجرة لم تتحمل الماء ، بدأت أزهارها البيضاء المنقطة بالوردي تتساقط بكثرة، تتساقط كما لو كانت تحاول إخراج الألم من الداخل، كما لو كانت تقول : « حتى نحن نعرف معنى الفقد...حتى نحن نحس بالغربة عن من نحب » ، لم تمت الشجرة بعد، لكنها كانت تنزف شيئًا...شيئًا يشبه قلب أدم، شيء يتدفق ببطء، بعمق، بمرارة حلوة، بشيء من حزن ممتد، لكنه ليس نهاية كل شيء.

وقف طويلاً، يحدق فيها، يحاول أن يفهم كيف يمكن لشيء صغير أن يترك أثرًا كبيرًا، وكيف يمكن لغياب شخص واحد أن يحوّل كل

شيء إلى اختبار...اختبار للصبر، للحب، للانتظار، للحنين للغضب الخفي، للرضا المؤلم.

جلس أدم لساعات تحت المطر، تحت الضوء الباهت للقمر المموه بالغيوم، يستمع إلى صدى المطر على الأرض، على السقف، على الأشجار الأخرى، يستمع إلى صمت الشجرة، إلى صمت قلبه إلى صمت كل شيء، ويعرف لأول مرة : أن الحب الحقيقي ليس فقط في اللقيا، أو الكلام، أو الرسائل، بل في الانتظار، في الترقب، في الحذر، في الشعور بكل شيء دون امتلاكه، في القدرة على الصمت أمام الغياب، ومواجهة الألم دون هروب.

ظل طويلًا هناك، ينظر إلى الأزهار التي تتساقط ببطء، يشعر بالهواء المبلل يمر عبر شعره وملابسه، يشعر بالبرد، بالشوق بالشعور بالمسؤولية، بالذنب، بالحب ، تذكر كل لحظة صغيرة مع رفل : لمساتها، ضحكتها، طريقة قلبها الذي يخف عند صمت أي أحد، كل شيء كان نابضًا في قلبه مثل مياه نهر تحت الجليد ، ثم همس لنفسه مرة أخرى : أحيانًا... حتى لو أحببت أكثر من اللازم...لا يمكن السيطرة على كل شيء...حتى الحب... حتى الغياب...حتى المطر...وحتى شجرة المشمش.

ظل المطر مستمراً، وتلاشى ضوء القمر وراء الغيوم، وكان أدم يشعر بأن قلبه ينمو من جديد، ليس بالقوة، وليس بالسيطرة، بل بالصبر، بالترقب، بالقدرة على حب شيء من بعيد، وبقبول أن بعض الأشياء...حتى لو أحببتها بكل قوتك...لا يمكن أن تُصلح أحيانًا.

وتعلم أدم أن الحب الحقيقي...يظهر في الانتظار، في الترقب، وفي القدرة على أن تحزن وتحب في نفس الوقت.

ظل واقفًا طويلاً، حتى هدأ المطر، حتى أصبح كل شيء صامتًا حتى غابت النجوم خلف الغيوم ، كان يرى قطرات الماء على الأوراق، على الجذع، على الأرض، كما لو كانت دموعًا صغيرة من السماء، دموع تعترف بالحزن، بالغياب، بالحياة، بالحب الذي لا يموت.

عرف أدم أن الغياب لم ينهِ الحب، وأن الرحيل، مهما طال، لن يزيل أثر رفل من قلبه، ولا أثرها من الشجرة، ولا أثرها من حياته في صمت تلك اللحظة، مع خفوت المطر، شعر أن قلبه أصبح أكبر قليلًا...أعمق قليلًا...أكثر صبرًا قليلاً ، وأن الحب، حتى في الغياب، يمكن أن يكون حاضرًا بقوة أكبر من أي لقاء.

أدم وقف هناك، يلمس جذع شجرة المشمش ، يشعر بأغصانها المتعبة، بأزهارها المتساقطة، وكأنه يلمس حزن رفل، وكأنه يشاطرها انتظارها، وغيابها، وحنينها، وصبره هو نفسه.

ثم جلس على الأرض المبتلة، يضع رأسه على الجذع ويغمض عينيه ووسط صمت الليل، بين قطرات المطر التي توقفت للتو وبين كل شيء صامت حوله شعر أدم لأول مرة أنه قد بدأ يفهم معنى الحب الكبير، الحب الذي لا يسيطر على أحد، الحب الذي يسمح للغياب أن يكون جزءًا منه، والحزن أن يكون جزءًا منه والصبر أن يكون جزءًا منه...وأن كل شيء صغير يمكن أن يحمل حبًا عميقًا إذا عرفنا كيف ننتظر...؟.

عطرُ اللهفة

رائحةُ الأثرِ

في كل زوايا الروح

في اليوم التالي، وقف أدم أمام والده الحاج محمد، والضوء الباهت يتسلل من نافذة المضيف كأنه شعاع خجول، ينسكب على الأرضية المليئة بالغبار والتراب، يعكس على الحجارة القديمة بريقًا ضعيفًا كأنه يحاول أن يروي قصة الأيام الماضية، قصة الحب والخوف والانتظار والفقد ، كانت بقايا الأزهار المتساقطة من الشجرة تلمع برقة تحت الضوء، كأنها تتحدث لغة لا يفهمها إلاّ من عرف الشجرة منذ غرسها، منذ أن كانت مجرد حلم أبيه على الأرض القاحلة.

وقف أدم، قلبه يرفرف بعنف، عيناه تلاحقان كل ظل طويل ترسمه أغصان الشجرة على الحائط، تحاول أن تحكي له عن كل لحظة ضحك فيها، عن كل دمعة، عن كل شعور غريب لا يمكن التعبير عنه بالكلمات : بابا شجرة المشمش تموت...!

خرج صوته أعلى مما أراد، مزيج من الخوف والقلق والغضب الذي لم يستطع فهمه ،كانت الكلمات تتعثّر في حلقه، تتقاطع مع دموع لم تخرج بعد، مع شعور غريب بالعجز.

الحاج محمد نظر إليه ببطء، بعينين تحملان حكمة عمر طويل حزنًا مكتومًا، وتجارب لم تُروَ، وكأن عمره كله يُوجز في هذه اللحظة، في هذه الكلمات القليلة : الماء، يا ولدي أدم...أحيانًا الخير القوي يقتل ، كما الحب أحيانًا.

قفز قلب أدم من الداخل، كما لو أن الأرض تحته اهتزت ، عاد كل شيء إلى بدايته، إلى اللحظة الأولى التي بدأ يفهم فيها الحياة الحب، والموت، والمسؤولية : الحب ليس قوة للسيطرة...الحب ليس أداة للإجبار...الحب ليس مجرد امتلاك...

جلس أدم على الأرض، قرب الشجرة، وبدأ يلمس الجذع البارد بجوزيته، يشعر ببرودته، لكنه أيضًا يشعر بالقوة القديمة التي ما زالت مخفية فيه ، وكان الجذع كمرآة لنفسه، كل خطوطه وكل نتوءاته تحكي عن صبر وعنفوان وحب لم يُفصح عنه.

أخذ بعض الأزهار المتساقطة بين يديه، شمّ رائحتها الخفيفة، كأنها تحفظ لحظات محددة من حياته : ضحكات رفل، لمساتها الخجولة، نظراتها التي كانت تقرأ قلبه قبل أن يعرف هو كيف يقرأ

قلبه نفسه ، رسم دوائر صغيرة في التراب، دوائر لكل ذكرى معه لكل لحظة ضحك فيها، لكل شعور غيرة شعوره به، لكل خوف من فقدها، لكل مرة شعر فيها أن الحب أعمق من أي فعل أعمق من أي كلمة، أعمق من أي محاولة للتحكم بالآخر.

الغبار كان يلتصق بأصابعه، والريح تهب بخفة على وجهه، تحرك شعره، تحمل معه رائحة الأرض المبللة والمطر القادم ، أغصان الشجرة تتمايل كأنها تتحدث، تهمس له : « حتى أنا شعرت بكل ما شعرت به...حتى أنا أحببت، وغار...وأرهقت... وأصبحت على وشك الموت البطيء »

آدم أدرك، لأول مرة بوضوح لا يخطئ : الشجرة لم تكن مجرد شجرة لم تكن مجرد زهور وثمار وجذع ،كانت مرآة لكل شيء بداخله...لكل خوفه، عشقه، ضعفه، حماسه، مسؤوليته...لكل شعوره بالغيرة والحب والانتظار ، كل شعور إنساني عميق كان الشجرة تحمله معه، وتحاول أن تعلمه درسًا بصمتها وثباتها، نظر آدم إلى السماء، الغيوم تتجمع، كثيفة، سوداء، تحجب الشمس تحجب الضوء، لكنها تمنحه شعورًا غريبًا بالأمان، شعورًا بالانتظار، بالتأمل، بشيء ما أكبر من كل شيء يعرفه.

سحب نفسًا طويلًا، شعر بالهواء يملأ صدره، بالمزيج المعقد من الحزن والشوق والخوف والحنين، شعر بالمسؤولية، وبالحرج الذي يرافق معرفة أنه يحب شيئًا لا يمكن أن يمتلكه بالكامل، لا يمكن أن يحميه من كل خطر، ولا أن يسيطر عليه تماماً.

الحب يعني الإنتظار...همس أدم بصوت منخفض، كأنه يحادث نفسه، الشجرة، رفل، والمطر معًا...الحب يعني القبول بما لا يمكن تغييره...الحب يعني السماح للقلب بأن يحب...حتى لو كان مؤلما...حتى لو أدى إلى خسارة ما تحب...حتى لو فقدت شيئًا ظننت أنه خالد.

جلس طويلًا، متأملاً أغصان الشجرة المثقلة ببعض الأزهار الباقية يتأمل كل شيء، كل نتوء في الجذع، كل قطره مطر تتسلل بين الأصابع ،شعور الغيرة، الذي أرهقه منذ البداية، لم يكن مجرد شعور بشري ، كان شعور كل شيء يحب...كل ما يحمل القلب في الداخل...كل ما يتألم عند الفقد، كل ما يشعر بالغياب، كل ما يحاول التمسك بالمحبوب دون السيطرة عليه ، أنا لن أستطيع التحكم بكل شيء...حتى قلبك، حتى الشجرة، حتى حبك... سأحبك...بصمت...بالمسافة...بالترقب...بالإنتظار...وبكل

ما يمكن أن يتحمله قلب صغير...سأتعلم أن أكون حاضرًا في كل شيء...حتى لو كنت بعيدًا.

سالت أول قطرة مطر على يده، تلتصق بالتراب، تلمع كأنها دمعة صغيرة من السماء، ومع كل قطرة، شعر أدم بصفاء غريب في قلبه صفاء ، يشبه المطر بعد الحرّ، الريح بعد صمت طويل، الدرس العميق الذي يعطيه العمر بدون كلمات، الحب الحقيقي الذي لا يعرف السيطرة، الذي يعرف الصبر، الغيرة، الانتظار، والفقد أحيانًا، لكنه يبقى حاضرًا مهما كان.

وقف ببطء، مد يده للجذع، همس : شكرًا...لأنك علّمتني أن الحب لا يُقاس بالقوة...بل بالقدرة على الإنتظار.

الأرض المبتلة، الغيم المتجمع، المطر الخفيف، الأزهار المتساقطة كل شيء من حوله كان يردد صمتًا نفس الرسالة : « المواجهة الحقيقية ليست مع أحد... إنها مع قلبك، مع حبك، مع الحياة نفسها » ، في تلك اللحظة، شعر أدم بأن قلبه أصبح أعمق أهدأ، أكثر قدرة على الفهم، على الحب، على الانتظار...على الغيرة بصمت...وعلى الحب بصبر...وعلى القبول بأن كل شيء، حتى الذي نحبّه، قد يظل بعيدًا أحيانًا، لكنه سيظل حاضرًا في القلب.

بعد غياب رفل، لم تتغير القرية في ظاهرها البيوت بقيت كما هي متقاربة، متعبة من الزمن، والطرقات الضيقة ما زالت تمتد بين الجدران الطينية نفسها، والأشجار لم تُقتلع، ولم يجفّ النهر ، لكن رغم ذلك، شعر أدم أن القرية لم تعد المكان ذاته ، كان هناك شيء غائب، شيء لا يمكن الإمساك به أو تحديده، لكنه حاضر في كل تفصيل ،كان آدم أول من إنتبه لهذا التغير ، لم يحتج إلى أيام طويلة ليشعر بأن الصباحات أصبحت أثقل ، كان يستيقظ كل يوم، يفتح عينيه، وينتظر ذلك الإحساس البسيط الذي إعتاد أن يرافقه، لكنه لم يعد يأتي ، الشمس تشرق، نعم، لكن بلا حماسة ، كأن النهار يؤدي واجبه فقط، دون رغبة حقيقية في البدء ، الأصوات التي ألفها منذ طفولته لم تختفِ، لكنها فقدت حدّتها ، نباح الكلاب في أطراف القرية صار أهدأ، ارتطام الدلاء بالماء لم يعد يلفت انتباهه، وحتى الأبواب حين تُفتح أو تُغلق لم تعد تُحدث ذلك الصدى الذي كان يشعره بأن الحياة تتحرك حوله كل شيء صار أقل وضوحاً، أقل حضوراً ، كان يمشي في شوارع القرية كثيرًا ، يعرف كل زاوية فيها، كل حجر، كل منعطف، ومع ذلك بدت له الطرق أطول مما كانت عليه ، لم يكن السبب تعب الجسد، بل ثقل الفكرة ، كل مكان يمر به يحمل احتمالًا مزعجًا :

ربما مرّت رفل من هنا ، ربما وقفت هناك ، ربما نظرت إلى هذا الاتجاه. هذه الاحتمالات كانت كافية لتُربكه في كل مرة.

النهر الذي اعتاد الجلوس عنده لم يعد يمنحه الراحة نفسها ، الماء ما زال يجري، لكنه بدا صامتًا ، لم يشعر أدم أن النهر يحكي شيئًا كما كان من قبل ، جلساته هناك لم تعد خفيفة، بل ممتلئة بتفاصيل صغيرة يتذكرها دون إرادة منه ، أين جلست رفل..؟

أين وضعت قدميها...؟

أين سكتت فجأة...؟

حتى الحجارة التي كانت تجلس عليها بدت وكأنها تحفظ شكل حضورها صار آدم يمشي أكثر من اللازم ، لم يكن يبحث عن مكان يصل إليه، بل كان يحاول أن يتجنب الوقوف ، التوقف يعني التفكير، والتفكير يعني مواجهة ما يحاول الهروب منه منذ رحيلها ، حين يتعب، كان يتجه إلى شجرة المشمش ، الشجرة التي زرعها والده الحاج محمد منذ سنوات، والتي تعلّق بها أدم دون أن يشعر ، كان يجلس عند جذعها، يلمس الخشب الخشن ويشعر بشيء من الطمأنينة ، الشجرة لم تكن مزهرة بالكامل، ولم تكن ميتة، كانت في مرحلة انتظار ، هذا ما شعر به، وهذا ما جعله يراها قريبة منه.

في إحدى المرات، همس دون أن يرفع صوته: « ما أقدر أحميك...ولا حتى أحمي نفسي ، كل شيء هنا هش ».

لم يكن متأكدًا لمن قال ذلك ،ربما للشجرة، وربما لنفسه، وربما لرفل الغائبة في مكان لا يعرفه ، بعد ذلك، بدأ يكتب ، لم يكن الدفتر مجرد دفتر ، كان المكان الوحيد الذي لا يطالبه بشيء ، يكتب فيه ما يخطر له دون ترتيب ، أحيانًا سطرًا واحدًا، وأحيانًا صفحات كاملة ، كتب عن الشجرة، عن النهر، عن الغياب الذي لا يجد له تفسيرًا مقنعًا، عن المطر الذي يذكره بخطواتها حين كانت تسرع، وعن الريح التي تذكّره بحركتها حين كانت تصلح شالها ، في المدرسة، لم يلاحظ كثيرون تغيره ، كان هادئًا من قبل لكن هذا الصمت الجديد كان مختلفًا ، لم يكن صمت خجل أو انطواء، بل صمت شخص يحمل شيئًا لا يعرف كيف يتعامل معه الدفاتر صارت عالمه الخاص، والأقلام وسيلته الوحيدة لترتيب ما لا يمكن قوله.

كان يقرأ كثيرًا، لكن القراءة لم تعد هروبًا ، كل جملة يقرأها كانت تذكره بها بطريقة غير مباشرة ، لم يكن يكتب اسمها، لكنه يشعر بوجودها في كل فكرة، في كل فراغ بين الكلمات.

رغم الغياب، لم يشعر أن الحب انتهى ، كان موجودًا، ثابتًا، لكنه صامت ، الحنين صار جزءًا من يومه ، لا يواسيه ولا يتركه، فقط يرافقه. يمشي معه في الطرقات، يجلس معه عند الشجرة، ويثقله قليلًا حين ينام ، في المساء، حين تهدأ القرية، كان يجلس وحده ينظر إلى السماء، ويستمع إلى قلبه ، لم يكن ينتظر جواباً، ولم يكن يطلب وعدًا ، فقط كان يقول في داخله : « أنا هنا...ما زلت أحب ، وما زلت أنتظر ».

كان يعرف، حتى لو لم تعد رفل، وحتى لو طال الغياب، أن بعض المشاعر لا تموت بسهولة ، وأن الحب لا يحتاج دائمًا إلى قرب، بل أحيانًا يكفيه الانتظار.

جلس ذات مساء عند شجرة المشمش، ورسم دوائر في التراب دوائر صغيرة وكبيرة، بلا سبب واضح ، ترك يده تتحرك وحدها كأنه يرسم ما لا يستطيع قوله ، وحين أنتهى، نظر إلى الأرض ثم ابتسم بهدوء، في تلك الليلة، حملت الريح بعض الزهور المتساقطة بعيدًا ، لم يرَ في ذلك علامة، ولم يبحث عن تفسير فقط شعر أن الصمت أحيانًا يكون أصدق من الكلام، وأن الحنين، مهما طال، يبقى دليلًا على أن شيئًا حقيقيًا كان هنا... وما زال.

الأوراقُ المتساقِطة

رسائلُ الصمتِ الضائعةُ

بين أوراقِ النهاية

مع نهاية الربيع بدأ التغيّر يظهر على شجرة المشمش، لكن ليس بطريقة مفاجئة تلفت الانتباه سريعًا، بل بتغيّر بطيء لا يلاحظه إلا من اعتاد مراقبتها يومًا بعد يوم ، أهل القرية مرّوا بجانبها كما يفعلون دائمًا، بعضهم قال إن الموسم لم يكن جيدًا، وبعضهم قال إن الماء هذه السنة كان أكثر من اللازم، ثم مضوا في شؤونهم. وحده أدم توقف عندها، لأنه كان يعرفها أكثر مما يعرف أي شيء آخر في القرية.

كانت الأزهار البيضاء المنقطة بالوردي، التي اعتادت أن تظهر قبل الأوراق، قد اختفت تمامًا ، لم تبقَ زهرة واحدة معلّقة على الأغصان ، الجذع الذي كان يميل إلى اللون الجوزي الدافئ بدا باهتًا، كأن التعب استقر فيه أخيرًا بعد سنوات من الوقوف بصمت ، أما الأوراق، فقد اصفرّت قبل أوانها، وبدأت تتساقط ببطء، ورقة بعد أخرى، وكأن الشجرة تتخلّى عن نفسها تدريجياً.

وقف أدم أمامها طويلًا ، لم يكن ينظر إليها كشجرة فقط، بل كشيء عاش معه مرحلة كاملة من حياته ، شعر بأن في داخله حنينًا ثقيلاً يشبه المطر حين يهطل بلا توقف، وذكريات تتزاحم في صدره دون أن تطلب الإذن ، تذكّر أيام جلوسه تحت ظلها وتذكّر رفل، وتذكّر كيف كان كل شيء في حياته مرتبطًا بها بطريقة غير مباشرة.

لم يعد يسمع خطواتها قرب النهر، ولم يعد يرى ظلّها يمرّ في الطريق الترابي، لكن حضورها بقي في التفاصيل الصغيرة، في الأماكن التي لم تتغير رغم غيابها ، شعر بأن المسافة بينه وبينها لم تكن يومًا واضحة؛ كانت دائمًا معلّقة بين الصمت والابتسامة، بين الخوف من الاعتراف والشجاعة التي لا تكتمل، بين وجودها في حياته وغيابها المفاجئ.

أقترب من الشجرة ووضع يده على الجذع ، كان ملمس الخشب مختلفًا عمّا اعتاده، أكثر برودة، أقل حياة. ابتسم ابتسامة خفيفة لا تحمل فرحًا ولا حزنًا خالصًا، بل مزيجًا من الاثنين، وقال بصوت منخفض وكأنه يخاطب الشجرة مباشرة : « حتى أنتِ تعلّمتِ درسًا، كما أنا ».

لم يكن يقصد الشجرة وحدها، بل كل ما مرّ به في الفترة الماضية. أدرك أن بعض الأشياء لا تموت فجأة، بل تذبل ببطء حتى نعتاد فقدها ، لم يمت قلبه، ولم تمت الشجرة، لكن كليهما تغيّر، ولم يعد قادرًا على العودة إلى ما كان عليه سابقًا.

جلس أدم بجانب الجذع، وأخذ يمرّر يده على سطحه الخشن، ثم أغمض عينيه للحظة ، شمّ رائحة الخشب، وترك أفكاره تنساب دون مقاومة ، للمرة الأولى، لم يحاول أن يهرب من الشعور بالفقد ولم يحاول أن يبرر ما حدث أو يلوم أحدًا ، بدأ يفهم أن الحياة لا تقوم على الاحتفاظ بكل ما نحب، وأن الحب لا يعني بالضرورة البقاء.

أخرج دفتره من حقيبته ، فتحه على صفحة بيضاء، وبقي ينظر إليها قليلًا قبل أن يبدأ بالكتابة ، كتب بهدوء، بخط واضح كلمات بسيطة لكنها صادقة ، كتب عن الحب الذي لا يُمتلك وعن المشاعر التي تنتهي دون أن تفقد قيمتها، وعن الانتظار الذي يعلّم الإنسان الصبر أكثر مما يعلّمه الفرح ، لم يكن يكتب ليحفظ الذكريات، بل ليضعها في مكانها الصحيح داخل نفسه.

رفع رأسه ونظر إلى السماء، فرأى الغيوم تتجمع فوق القرية تذكّر رفل مرة أخرى، لكن هذه المرة دون ذلك الثقل الذي كان

يشعر به سابقًا ، لم يشعر بالغضب، ولا بالأسى الحاد، بل بشيء أقرب إلى الامتنان ، أدرك أن تلك التجربة، رغم ألمها، جعلته أكثر صدقًا مع نفسه، وأكثر وعيًا بما يريده وما يستطيع تحمّله.

كانت هذه اللحظة نهاية مرحلة كاملة من حياته ، نهاية لطفولة عاطفية ظنّ فيها أن الحب يجب أن يكون كاملًا أو لا يكون أنتهت مرحلة الإنتظار غير المفهوم، والأسئلة التي بلا إجابات وفي المقابل، بدأت مرحلة جديدة، مرحلة تقبّل الواقع كما هو والحب كما يأتي، حتى لو كان ناقصًا أو مؤلمًا.

جلس أدم وقتًا طويلًا بجانب الشجرة، يستمع إلى صوت الريح وهي تحرّك أغصانها القليلة الباقية، ويراقب الأوراق وهي تسقط على الأرض ، لم يعد الصمت يخيفه، بل صار مساحة للتفكير والفهم ، ومع اقتراب الغروب، نهض ببطء، ونظر إلى الشجرة مرة أخيرة ،همس لنفسه قبل أن يبتعد : « سأعيش، حتى لو لم يبقَ كل شيء كما أردته ».

كان الغروب يلوّن السماء بألوان متداخلة، تشبه ما في داخله من مشاعر متناقضة ، ترك أدم الشجرة خلفه، ومشى في طريق القرية وحيدًا، لكنه أكثر نضجًا وهدوءًا مما كان عليه ، الحنين لم يختفِ

لكنه لم يعد مؤلمًا كما كان، بل أصبح جزءًا من فهمه للحياة وشيئًا يتعايش معه بدل أن يقاومه.

مرّت أسابيع منذ اختفاء رفل، أسابيع لم تحمل شكلًا واضحًا، ولم تُقسَّم إلى أيام أو ليالٍ كما اعتاد أدم من قبل ، كان الزمن يتحرك نعم، لكنه يتحرك بطريقة غريبة، كأنه يتقدّم خارجيًا فقط، بينما بقي شيء ما في داخله متوقفًا عند لحظة لا يستطيع تحديدها بدقة لم يكن هناك حدث واحد يمكن أن يُسمّى « الوداع »، ولا مشهد أخير يُغلق القصة، بل مجرد غياب تَسلّل بهدوء، واستقرّ ورفض أن يرحل.

في تلك الليلة، جلس أدم في غرفته وحده ، الغرفة التي يعرفها جيدًا، والتي لم تتغير فيها الأشياء، لكن شعوره تجاهها تغيّر الجدار نفسه، المكتب الخشبي القديم، الكرسي الذي يئنّ قليلًا حين يجلس عليه، النافذة المطلة على الساحة حيث تقف شجرة المشمش ، كل شيء في مكانه، إلا قلبه، الذي لم يعد يعرف أين يقف بالضبط.

فتح النافذة قليلًا ، لم يكن بحاجة إلى هواء إضافي بقدر حاجته إلى الإحساس بأن هناك شيئًا من الخارج ما زال يصل إليه دخلت رائحة التراب الرطب بعد مطر خفيف سقط قبل ساعات

ومعها رائحة المشمش، تلك الرائحة التي لم تختفِ رغم تغيّر الفصول، والتي أصبحت مرتبطة في ذهنه بأشياء كثيرة : بالصباحات الأولى، بالانتظار، بالصمت، وب...رفل.

جلس على السرير للحظة، ثم نهض واتجه إلى مكتبه ، لم يكن قد قرر أن يكتب، ولم يكن يحمل فكرة واضحة، لكنه شعر بحاجة غريبة إلى الإمساك بالقلم ، كأن يده تطلب ذلك قبل أن يفهم السبب ، أخرج الدفتر من الدرج، الدفتر الذي كتب فيه أشياء كثيرة من قبل، أشياء عن الدراسة، عن القرية، عن الشجرة وأحيانًا عن نفسه دون أن يسمي ما يشعر به صراحة.

جلس، ووضع الدفتر أمامه، وبقي ينظر إلى الصفحة البيضاء طويلًا ، لم تكن الصفحة تخيفه، لكنها كانت تفرض عليه مواجهة لا يستطيع تأجيلها أكثر ، كان يعرف أن ما سيكتبه لن يكون مجرد كلمات، بل اعتراف لن يراه أحد، ولن يُقرأ، لكنه مع ذلك سيغيّر شيئًا في داخله.

بدأ يكتب ببطء شديد ، لم يكن في عجلة، ولم يكن يبحث عن جملة جميلة أو مؤثرة ،كان يبحث عن الصدق فقط ،كتب إسمها أولًا ، رفل...! ، توقف ، أعاد قراءة الإسم ، شعر أنه لا يزال

يحمل الوزن نفسه، لم يخفّ، ولم يصبح أسهل ، تابع : « أحببتك كما تحب شجرة المشمش المطر ».

توقّف...، مرة أخرى لم يكن التشبيه مقصودًا بقدر ما كان تلقائيًا رفع رأسه ونظر من النافذة ، الشجرة كانت هناك، واقفة، متعبة أوراقها صفراء، وبعض أغصانها تميل بوضوح أكثر من السابق تذكّر كيف كان والده الحاج محمد يقول : إن المشمش شجرة حساسة، لا تحتمل الإفراط ولا الإهمال، وأنها تموت إذا أُسيء فهم حاجتها ، عاد إلى الكتابة : « بحذر ، بخوف ، وبكل ما أملك »

لم يشعر بالحاجة إلى تفسير أكثر ، كان يعرف ما يقصده ، كان حبّه منذ البداية حذرًا، كأنه يعرف أن أي حركة زائدة قد تفسد شيئًا جميلًا ، لم يكن حب إمتلاك، ولم يكن اندفاعًا أعمى، بل محاولة مستمرة لحماية شيء هشّ ،كتب : « أحببتك كما يحب القلب الذي يعرف أن كل خطوة خاطئة قد تؤذي ما هو ثمين » توقّف مرة ثالثة ، وضع القلم جانبًا، وأسند ظهره إلى الكرسي عاد بذاكرته إلى الأيام الأولى : النظرات السريعة، الكلمات القليلة الصمت الذي كان أطول من أي حديث أدرك فجأة أن أغلب ما جمعه بها لم يكن كلاماً، بل حضورًا ، وجودًا متبادلًا في المكان

نفسه، في اللحظة نفسها، دون وعود أو تعريفات ، عاد إلى الدفتر: « أحببتك بصمت ، ليس لأنني لا أملك الكلام، بل لأن الصمت كان أصدق ».

ظل يكتب، صفحة بعد صفحة، دون أن ينتبه للوقت لم تكن الرسالة منظمة، ولم تتبع تسلسلًا منطقيًا، لكنها كانت صادقة. كتب عن الغياب، عن الأسئلة التي لم يجد لها جوابًا، عن الأيام التي كان ينتظر فيها دون أن يعرف ماذا ينتظر.

كتب : « رحيلك علّمني أن الحب ليس إمتلاكًا ، ليس كل حب يُولد ليبقى قريبًا ، وليس كل قلب ناضج يُطالب بالبقاء ».

كانت يده ترتجف قليلًا، ليس من البرد، بل من الإحساس بثقل الكلمات ، شعر أن ما يكتبه ليس موجهًا إليها فقط، بل إليه أيضًا، كأنه يشرح لنفسه ما حدث، ويحاول أن يفهمه دون غضب.

كتب عن الإحترام ، عن القبول، عن فكرة أن تحب شخصًا وتترك له حرية الرحيل دون أن تحوّل الحب إلى عبء، حين إنتهى أغلق الدفتر ببطء، ووضعه على الطاولة ، لم يشعر برغبة في إعادة القراءة ، لم يكن بحاجة إلى التأكد مما كتب ،كان يعرف أن الرسالة لن تُرسل، ولم تُكتب لتُرسل أصلًا.

جلس قليلًا في الظلام، ثم نهض وخرج إلى الخارج ، وقف تحت السماء الملبدة بالغيوم ، الهواء كان باردًا، والمطر بدأ ينزل بخفة. سمع صوت القطرات وهي تضرب أوراق الشجرة، ورأى كيف تهتز الأغصان بهدوء، لم يشعر بالحزن كما توقع ، شعر بشيء أقرب إلى السلام، سلام غير كامل، فيه فراغ، لكنه ليس مؤلمًا كما كان.

همس لنفسه، لا موجّهًا كلامه لأحد بعينه:سأبقى أحب...لكنني لن أؤذي نفسي ولا غيري.

عاد أدم إلى غرفته، والهدوء يملأ المكان كأنه ثوب ثقيل يغطي كل شيء، يغطي الحائط، يغطي الهواء، يغطي الصمت نفسه ، جلس قرب الدفتر، وضع يده على الغطاء، كأنه يحاول استشعار نبض الماضي بين الصفحات ، كانت عيناه تتجهان نحو نافذة الغرفة حيث تتلألأ أوراق شجرة المشمش في آخر ضوء الشمس، وكأنها تذكره بأن هناك حياة تستمر خارج حدود حزنه، وأن العالم لا يتوقف عند لحظة الألم.

أدرك أدم شيئًا غريبًا لكنه واضح في داخله : بعض الأشياء لا تُشفى بالوقت، ولا تختفي بالصمت، ولا تتبدد بالكلام ، بعضها يبقى راسخًا، ثابتًا مثل حجر عتيق على ضفاف النهر، لكنه يُفهَم. والفهم، رغم بساطته الظاهرية، هو أقوى من أي دواء

أقوى من أي محاولات لإخفاء الجروح ، الفهم يمنح الإنسان القدرة على الاستمرار، على الوقوف بعد السقوط، على المضي خطوة جديدة حتى ولو كانت ثقيلة على الروح.

نظر إلى الدفتر مرة أخرى، كما لو كان يرى فيه نفسه من بعيد نسخةً مهتزة من شخصٍ عاش الكثير وتعلم الكثير، لكنه لم يختبر بعد عمق الحياة الكامل ، الرسالة التي لم تُرسل كانت مثل ظل يرافقه، حاملاً كلمات لم تُقال، ومشاعر لم تُفرغ، لكنها أدّت وظيفتها بصمت ، لم تغيّر الماضي، لكنها أعادت ترتيب قلبه الذي صار يعرف الآن كيف يفرق بين الحاجة للقبول والحاجة للفهم، بين حبٍ يحرّره وحبٍ يسجنه.

جلس أدم أطول فترة ممكنة، متأملاً خيوط الضوء التي تتسلل بين أوراق الشجرة، تتسرب إلى الغرفة بخفة، وكأنها تحاول مدّ يده إلى شيء ضائع في داخله ، كل شعاع كان يحمل معه ذكرى، كل ظل كان يخبئ وراءه ألمًا، وكل نسيم كان يلمس قلبه بطريقة لا يقدر عليها الكلام ، هنا، على حافة الوعي والخيال، بدأ يشعر بشيء غريب؛ إحساسٌ بالسلام، ليس سلامًا نهائيًا، لكنه سلامٌ مؤقت يسمح له بالتنفس بحرية ولو للحظة.

أغلق عينيه وتخيل كل ما لم يُكتمل، كل الحب الذي لم يُعط، كل الكلمات التي توقفت عند الشفاه، كل اللقاءات التي اختزلها الصمت ، لم تكن مشاعره حزنًا فقط، بل كانت مزيجًا من الفقد والفهم، والاستسلام، وإصرار داخلي على ألا يجعل الماضي يُسيطر على حاضره أو مستقبله.

الليل بدأ يزحف ببطء، يملأ الزوايا، ويضع الستار على كل شيء. أدم شعر بثقل الوقت، لكنه لم يشعر باليأس ، لأن الفهم أعطاه شعورًا غريبًا بالقوة، شعورًا بأنه قادر على مواجهة كل ما سيأتي حتى لو كان الطريق مليئًا بالأسئلة التي لا إجابة لها، حتى لو كانت الحياة نفسها تختبره بلا هوادة.

كانت الغرفة صغيرة، والدفتر أمامه، والليل يلتف حوله، لكنه لأول مرة منذ زمن طويل شعر بأن المساحة التي يعيش فيها المساحة التي كان يخافها دائمًا، يمكن أن تصبح مأوى له، مكانًا لتجديد الروح، لإعادة ترتيب الأفكار، واحتضان ذاته بكل ما فيها من ضعف وقوة، ألم وفرح، صمت وذكريات.

أدم لم يكتب أي شيء بعد تلك اللحظة، لكنه شعر أن الكتابة لم تعد ضرورية ، الدفتر لم يكن مجرد أوراق، بل كان مرآة لروحه

وللمعركة التي خاضها مع ذاته ، الرسالة لم تُرسل، لكن قلبه فهم وعقله فهم، وروحه شعرت بالارتياح لأول مرة منذ وقت طويل.

وفي النهاية، رفع نظره نحو شجرة المشمش مرة أخرى، كأنما يودعها، أو يشكرها، أو يطلب منها أن تبقى هناك، شاهدةً على كل شيء عاشه، على كل ما فقده، وعلى كل ما بقي حيًا في قلبه ، لم يعد يحتاج لأن تكون الكلمات واضحة أو مكتوبة فالضوء والظل والخريف والدفتر، كل شيء أصبح لغةً واحدةً يفهمها فقط هو ، لغة تمنحه القوة للاستمرار، ولحظة السلام التي لم يعرفها من قبل.

عرف أدم، في تلك اللحظة الطويلة والصامتة، أن الحياة لا تُقاس بما نكتبه، ولا بما نرسله، بل بما نفهمه، بما نتعلمه، وبما نستطيع أن نحمله في داخلنا مع كل خطوة نخطوها نحو المستقبل.

رَبِيعٌ لَا يَعُود

مَا لَا يَعُودُ

يَبْقَى أَثَرُهُ إِلَى الأَبَد

مرّت الفصول على قرية فرج كما تمرّ على كل القرى التي لا تنتظر من الزمن شيئًا، ولا تطلب منه تفسيرًا ، لم تكن القرية تقف لتسأل: لماذا تغيّر هذا...؟

ولماذا رحل ذاك...؟

كانت تعرف، بفطرتها البسيطة، أن الزمن لا يُفاوض، وأن الحياة لا تعتذر عمّا تأخذه أو عمّا تتركه خلفها ، شتاء بعده شتاء يطرق الأبواب البسيطة بصمته الثقيل، ويغادر دون أن يلتفت صيفٌ طويل، متعب، يملأ الحقول بالعرق ويترك في الوجوه خطوطًا جديدة من الصبر ، خريفٌ بطيء، تتساقط فيه الأشياء دون صوت، كأنها توافق أخير على الرحيل ، ثم ربيع...يعود دائمًا بنفس الدقة، بنفس الهدوء، كأنه لم يسمع يومًا بما يتبدّل في داخل البشر ، لكن أدم كان يعرف شيئًا لم تقله القرية بصوت عالٍ : أن الزمن، رغم انتظامه، لا يمرّ على القلوب بنفس الإيقاع.

كان يراه في التفاصيل الصغيرة ، في الطريقة التي تغيّرت بها نظراته للأماكن ، في الصمت الذي صار أطول من اللازم ، وفي الأشياء التي بقيت كما هي...لكنها لم تعد تُشبه نفسها.

عاد الربيع، نعم...لكن شجرة المشمش لم تعد كما كانت ، لم تزهر كما اعتادت ، لم ترتدِ بياضها الذي كان يضيء المكان، ولا امتلأت أغصانها بذلك الفرح الخفيف الذي كان يسبق كل موسم. لم تعد تلك العروس الصغيرة التي كانت تقف قرب مضيف الدار تستقبل العابرين بابتسامة من زهر.

كانت واقفة فقط ،كأنها تؤدي دورها...دون أن تعيشه ، جذعها صار أكثر خشونة، كأنه يحمل ما لا يُقال ، أغصانها أقلّ امتدادًا كأنها تخلّت عن الرغبة في الوصول ، أوراقها تولد، ثم تبهت بسرعة، كأنها تجرّب الحياة دون اقتناع كامل بها ، لم تمت الشجرة...لكنها لم تعد حيّة كما يجب ، وكان أدم، كلما مرّ بها يشعر أن بينه وبينها سرًّا مشتركًا ، شيء لا يُقال، لكنه مفهوم شيء يشبه الاعتراف الصامت بأن بعض الخسارات لا تُنهي الحياة...لكنها تغيّر شكلها إلى الأبد.

لم يعد يلمسها كما كان يفعل ، لم يعد يقترب ليتفقد أغصانها أو يبحث عن أول زهرة.

كان يكتفي بنظرة عابرة...نظرة فيها احترام، وفيها مسافة، وفيها نوع من الوفاء الصامت ، كأن كليهما اتفقا : أن ما حدث... لا يحتاج إلى إعادة رواية، وفي ذلك الربيع، صار النهر أكثر قربًا من أدم ، لم يتغير النهر، في ظاهره ، ما زال الماء يجري، وما زالت الضفاف كما هي، وما زالت الحجارة الصغيرة تحفظ أماكنها لكن شيئًا في صوته تغيّر ، أو ربما...الذي تغيّر هو أدم نفسه.

كان يجلس على الضفة، في المكان ذاته الذي شهد بداية كل شيء، لكن الشعور لم يعد كما كان ، لم يعد ينتظر ، لم يعد يُصغي لأي احتمال قادم من الطريق ، لم يعد يحدّث الماء عن أحد.

كان يجلس...فقط ليكون هناك ، يتذكّر رفل، نعم...لكن الذكرى لم تعد حادّة كما كانت ، لم تعد تقطع داخله أو تعيده إلى تلك اللحظات الأولى بكل تفاصيلها المؤلمة.

صارت أخف ، أهدأ ، أكثر إنصافًا ، لم تعد الذكرى تطلب شيئًا لا عودة، ولا تفسير، ولا حتى اعتذار ، صارت مثل صفحة قديمة...لا تُمحى، لكنها لم تعد تُقرأ كل يوم ، وفهم، ببطء، أن الحب الأول لا يختفي ، لكنه يتغيّر ، يتحوّل من رغبة في الإمساك...إلى قدرة على الفهم ، من خوف من الفقد...إلى

قبول هادئ به ، من حاجة إلى الآخر...إلى معرفة أعمق بالنفس وبعد عامٍ كامل، في يومٍ عادي جدًا، حدث ما لا يُرتّب له الزمن. لم يكن هناك موعد ، ولا نية ، ولا حتى حدس واضح ، كان أدم يسير في الطريق الترابي المؤدي إلى أطراف القرية، عائدًا من النهر حين رآها.

رفل ، تمشي بهدوء ، خطواتها موزونة، كأنها تعلّمت كيف تسير دون أن تثقل الأرض...؟

تحمل حقيبة صغيرة، لا يبدو أنها تحمل أكثر من الضروري ،رأسها مرفوع، لكن ليس بتحدٍ...بل بسلام ، توقّف أدم...لم يهرب ، لم يتقدم ، لم يفعل شيئًا...سوى أنه بقي في مكانه ، وعندما اقتربت بما يكفي، توقفت هي أيضًا.

لم تتفاجأ ، كأن اللقاء كان مكتوبًا في مكانٍ خفي، ليس في الطرق...بل في الداخل ، نظرا إلى بعضهما طويلًا ، نظرة خالية من الأسئلة لا عتاب فيها ، ولا رغبة في استرجاع ما انتهى ، ولا محاولة لفتح أبواب أُغلقت بهدوء.

ابتسمت رفل أولًا ، ابتسامة صغيرة...لكنها صادقة تمامًا ، لا تحمل وعدًا، ولا تبريرًا، ولا حتى ندمًا.

ابتسم أدم بعدها ، بخفة...كأن الابتسامة خرجت دون إذن دون تفكير، دون مقاومة ، وكان الصمت بينهما... مريحًا ، ليس صمتًا ثقيلًا، ولا صمتًا مرتبكًا ، بل صمت يشبه النهاية التي لا تحتاج إلى شرح ، في تلك اللحظة، فهم أدم شيئًا لم يفهمه طوال عام كامل : أن بعض القصص لا تُغلق بالكلمات...بل تُغلق حين يتوقف القلب عن السؤال ، تبادلا نظرة أخيرة ، ثم تحركت رفل بهدوء، لتكمل طريقها ، لم تلتفت كثيرًا ، لم تحاول إطالة اللحظة ، كأنها تعرف أن الجمال، أحيانًا، في أن تنتهي الأشياء في وقتها.

جلس أدم على حجر قريب ، نفس الحجر الذي جلس عليه مرات كثيرة من قبل ، أخرج دفتره ، هذه المرة...لم ترتجف يده ، لم يشعر بذلك الثقل الذي كان يسبق كل كلمة.

كتب بهدوء : « تعلمت أن الحب لا يعني البقاء، ولا يعني الإمساك، ولا يعني الخوف من النهاية ، تعلمت أن بعض القلوب تأتي لتعلّمنا...لا لتستقر ».

توقف قليلًا ثم أضاف : « وأن أجمل ما يمكن أن يتركه إنسان في قلب آخر، ليس وعدًا...بل أثرًا لا يؤلم ».

رفع رأسه نظر إلى السماء...التي لم تتغير إلى الشجرة...التي لم تعد كما كانت ، إلى الطريق...الذي ابتعدت فيه رفل ، وشعر بشيء جديد ، شيء لم يكن حزنًا ، ولم يكن فرحًا ، بل شيء بينهما...أهدأ، أعمق، وأصدق، لم يكن الربيع الذي عاد هو ربيع المشمش ، بل ربيعًا داخليًا ، ربيع الفهم ، ربيع القدرة على التذكّر...دون أن ينكسر القلب ، ربيع الحب...حين يتحرر من فكرة الامتلاك.

نهض آدم ببطء، كما لو أن كل جزء من جسده يودّ البقاء في مكانه، كما لو أن الأرض نفسها كانت ترفض أن تحرّكه ، أغلق دفتره بعناية، مدركًا أن الصفحات التي ملأها بالكلمات لم تعد تحمل له سوى صدى صوته في الماضي، وأن ما كتبه لم يعد قابلاً للتغيير، ولم يعد قابلاً لإعادة صياغة المشاعر ، لم يكن يحمل معه أي انتظار، ولا خطة للعودة إلى ما كان، ولا رغبة في إصلاح شيء قد انتهى منذ زمن طويل ، كل ما معه كان هدوءًا غريبًا متسللًا من قلبه، وشيئًا واحدًا تعلمه في كل تلك السنوات، في كل الخيبات، في كل الحكايات الصامتة...أن الحب الحقيقي لا يصرخ، لا يطالب، لا يخيف، ولا يختبئ وراء الكلمات الصاخبة أو الوعود الكاذبة ، الحب الحقيقي، ببساطته ونعومته، يمرّ، يترك

أثره، ضوءًا خفيفًا في القلب، ثم يمضي، ليترك مساحة لنا... لنعيش نحن، للحظة واحدة على الأقل، بلا شروط، بلا قيود، بلا خوف من الغياب.

خطا آدم خطوة أولى، ثم ثانية، كل خطوة كانت تحمل عبء اللحظات الماضية، لكنها كانت أيضًا تفتح أمامه فسحة جديدة. لم يكن يعرف وجهته، ولم يكن بحاجة إليها. كان يعرف فقط أن الطريق أمامه طويل، وأن هذا الطريق سيكون مرآة لحقيقته، وليس لحياة الآخرين، ولا لتوقعاتهم. كان يسمع في صمت الرياح بين الأشجار صوت قلبه، كما لو أن الطبيعة نفسها أرادت أن تخبره أن كل شيء سيمضي... وأنه عليه أن يمضي معها، بخطواته ببطئه، بسلامه.

أشعة الشمس الأخيرة كانت تتسلل بين أغصان الشجر، ترسم خطوطًا ذهبية على الأرض، خطوطًا كانت تتقاطع مع ظله الطويل، وتذكّره بأن كل نهاية تحمل بداية ، تذكّره أن كل ما عاشه، وكل ألم شعر به، وكل فرحة صغيرة انتزعها من الحياة...لم يذهب سدى ، كل شيء صار جزءًا من الضوء الذي يحمله الآن في قلبه جزءًا من المكان الذي سيستقر فيه، بعيدًا عن الصراخ

بعيدًا عن المطالب، بعيدًا عن كل شيء لا يمكن أن يكون صادقًا إلا إذا رحل في هدوء.

كانت القرية أمامه، صامتة كما لو أنها تحترم صمته، لم يلتفت إلى البيوت، إلى الأزقة، إلى الأصوات البعيدة التي تستمر في حياتها دون أن تتوقف ، كل ما كان يهمه الآن هو مساحة نفسه، تلك المساحة التي تحتاج إلى الهواء، إلى ضوء الشمس الخفيف، إلى رائحة التراب بعد المطر، إلى كل الأشياء البسيطة التي تعطي الحياة قيمتها ، في هذه اللحظة، فهم أن الحياة لا تعود أبدًا كما كانت وأننا لا نستطيع إعادة كتابة الماضي، لكننا نستطيع أن نكتب أنفسنا في الحاضر...برفق، بصمت، وبقوة خفية.

آدم استمر في المشي، خطوة بعد خطوة، وكل خطوة كانت تعلن شيئًا جديدًا : أنه لم يعد عبدًا للخيبات، لم يعد أسيرًا للألم، لم يعد رهينة لأحد. كان حراً بما يكفي ليحتفظ بالحب الذي عرفه بالضوء الذي تركه، وبالسلام الذي بدأ يشعر به في قلبه ، لم يكن يعرف ما سيحدث غدًا، ولم يكن يهمه أن يعرف. ما يهمه الآن هو هذه اللحظة، هذا الهدوء، هذا الضوء الذي يمرّ عبره، ويتركه مستعدًا لكل شيء... للحياة، للحب، للبقاء على قيد ذاته، بلا انتظار، بلا خوف، بلا صراخ.

حِكايَةُ حُبّ

تَموتُ الأَشْجارُ

وَيَبْقَى العِشْقُ يَنْمُو في صَمْت

عاد الصيف إلى قرية فرج كما يعود كل عام، في موعده تقريبًا بلا تأخير ولا إعتذار ، الشمس ذاتها، والحرارة ذاتها، والغبار الذي يعرف الطرق كما يعرفها أهلها ، لكن الربيع...الربيع لم يعد يعرف الطريق ، كان أدم يشعر بذلك منذ الأيام الأولى، منذ اللحظة التي رأى فيها الحقول خضراء بلا فرح، والسماء صافية بلا وعد وكأن الفصول تمضي من غير أن تحمل أرواحها معها ، كل شيء يبدو صحيحًا في شكله، ناقصًا في معناه ، شجرة المشمش، التي كانت قلب البيت، وروحه الخفية، كانت شاهدة على هذا النقص لم تكن مجرد شجرة ، كانت زمنًا كاملًا ، منذ طفولته، كان أدم يعرفها كما يعرف كفّه ، عرف ظلّها في الصباح، وبرودتها عند المساء، وصوت أوراقها حين تهب الريح، ورائحة أزهارها حين كانت تزهر قبل أن تورق، في مخالفة صامتة لكل القوانين ، كان والده الحاج محمد يقول دائمًا : « هذه الشجرة مثل البشر...لا تحب الترتيب...تحب أن تفاجئ » وتفاجئ فعلًا كانت تزهر

بيضاء، منقّطة بحمرة خجولة، كعروس لا تزال تتعلم كيف تخجل...؟.

ثم تكسوها الأوراق لاحقًا، وكأنها تخفي فرحها عن العيون ، ثم تثمر سريعًا، ثمرًا قليل العمر، شديد الطعم، لا يحتمل الإهمال ولا كثرة الماء ولا الجفاف ، وكان أدم ، دون أن يعرف لماذا...؟

يشعر أن هذه الشجرة تفهمه ، وتفهم رفل أكثر ، تحت هذه الشجرة تحديدًا، وقف أحمد أول مرة يشعر أن قلبه ليس له وحده ، تحتها رأى رفل، لا كفتاة عابرة ،لم تلمس الأغصان يومًا لكنها كانت تقف قريبًا بما يكفي ليشعر أن الشجرة تنتبه لها وأنها بطريقة غامضة، تحفظ حضورها بين أوراقها، اليوم...كانت الشجرة مختلفة ، الجذع، الذي كان ممتلئًا بالحياة، صار باهتًا متشقّقًا، كجلد تعب قبل أوانه ، الأغصان تميل بلا مقاومة، بلا رغبة في الصمود، وكأنها سلّمت أمرها للريح ، الأوراق الصفراء تتساقط ببطء، واحدة تلو الأخرى، لا بعجلة الموت، بل بثقل الفهم ، كانت شجرة تعرف أنها تموت ، وقف أدم أمامها طويلًا لم يكن وقوفه هذه المرة وقوف زائر، ولا حنين عابر ، كان وقوف من يودّع جزءًا من نفسه ، مدّ يده، لمس الجذع ،كان باردًا ، ليس برد الخشب، بل برد الذكريات حين تهدأ ، أغمض عينيه، كأنه

ينتظر أن تعود الحرارة، أن يعود الزمن، أن تعود رفل واقفة هناك تراقب الأزهار دون أن تسأل ، لكن الصمت كان صادقًا ، فتح عينيه، وراح يتأمل الأغصان ، كل غصن كان حكاية ، كل ورقة صفراء كانت لحظة ، كل سقوط كان صوتًا داخليًا لا يسمعه أحد سواه ، سمع الغيرة الأولى، تلك التي جاءت خجولة، مرتبكة بلا سبب واضح ، سمع الخوف حين غابت رفل دون تفسير ، سمع الإنتظار الطويل الذي تعلّم فيه أن الأيام لا تفسر نفسها، وأن بعض الغياب لا يعود ، جلس عند جذع الشجرة، كما جلس مئات المرات من قبل، لكن هذه الجلسة كانت مختلفة ، لم يكن ينتظر أحداً...لم يكن يأمل لقاءً ،كان فقط حاضرًا ، أخرج دفتره هذا الدفتر الذي كتب فيه اسم رفل مرارًا، ثم مسحه، ثم أعاده، ثم تركه فارغًا ، لكن هذه المرة، لم يكتب لها ، كتب لنفسه : « أيها القلب...كنت صغيرًا كنت تحب كما تحب الأشجار الصغيرة المطر، بخوف ورغبة في آن واحد ، كنت تظن أن الحب يعني أن تحمي، أن تراقب، أن تمسك بكل شيء ، كنت تخاف أن يذبل أن يضيع، أن يختفي ، اليوم...تعرف أن الحب لا يُمسك ، الحب يُحترم ، الحب أحيانًا صمت طويل، وانتظار لا يطلب مكافأة الحب لا يحتاج إلى صوت...يكفيه الصدق...» رفع رأسه

السماء كانت هادئة، ضوء الشمس يمرّ بين السحب كأنه لا يريد أن يؤذي أحدًا ، النسيم دافئ، يمرّ بين الأغصان البالية، يحرك الأوراق الساقطة كما لو كان يقرأها ، شعر بشيء يتحرك داخله ليس حزنًا ، ليس غضبًا ، ليس غيرة ،بل سلام من يفهم أخيرًا الشجرة التي علّمته الحب، كانت تتخلى عنه ببطء، كما يتخلى الإنسان عن طفولته، عن براءته، عن أول وهم جميل ، لكنها لم تتركه فارغاً ، تركته ممتلئًا بالدروس ، تذكّر رفل ،كيف كانت تقف تحت الشجرة ، تنظر إلى الأزهار، وتبتسم دون سبب...؟

كيف كانت تعرف، بلا كلام، أن هذا المكان له معنى...؟

كيف كان الصمت بينهما أصدق من أي اعتراف...؟

وفجأة، مرّ النسيم على وجهه ، حمل رائحة بعيدة...ليست رائحة جسد، بل رائحة ذكرى ، كأن الريح نفسها تهمس : كل شيء له نهاية... لكنك ستظل تحب ، ابتسم آدم ، ابتسامة هادئة ، لا تشبه الفرح ،ولا تشبه الحزن ، تشبه القبول ، كتب آخر الكلمات: « أيها الحب...علمتني الصمت، علمتني الانتظار علمتني أن الذكريات لا تموت، حتى لو ماتت الأشجار يبقى الحب...صامتًا، صافياً، خالداً » نهض ، حمل الدفتر، ابتعد عن الشجرة ، كان ظلّه طويلًا خلفه، يلامس الأرض كما تلامس

الذكريات القلب ، ومع الشمس الغاربة، شعر أن قلبه أخف أصدق، وأقدر على أن يحب...لا ليملك، بل ليكون....النهاية الرمزية ، مرت الأشهر ببطء، كما لو أن الزمن نفسه أراد أن يعلّم أحمد درس الصبر ، بدأ الخريف يدنو بهدوء، حاملًا معه رياحًا باردة تهمس بين الأشجار، وأوراقًا صفراء تتساقط من السماء كأنها رسائل صغيرة من الماضي.

كل ورقة كانت تحمل سرًّا، قصةً، لحظةً، أو ابتسامة عابرة اختفت الآن لتترك أثرها على الأرض ، شجرة المشمش، التي عاشت مع أدم كل لحظة من طفولته ومراهقته ، التي شهدت أولى خفقات قلبه، أولى ابتسامات الغيرة، الفقد، الحنين، والتعلّم، لم تعد مجرد شجرة بالنسبة له ، كانت الآن أكثر من ذلك : رمز لكل ما مضى، لكل ما كان مؤلمًا، لكل شيء ترك أثره في أعماق قلبه ، كل عقدة في جذعها، كل تفرع من أغصانها، كل ورقة متعبة معلقة أو ساقطة على الأرض، كانت تمثل ذكريات، صمتًا فقدًا، ودرسًا عاشه قلبه الصغير ، جلس أدم تحتها في صباح هادئ، حيث الضوء ينسكب بين الأغصان المائلة بشكلٍ متقطع كأنه يرسم على الأرض لوحةً من الظلال والذكريات ، الهواء كان يحمل رائحة الأرض المبللة بالندى، ورائحة أوراق سقطت منذ

أسابيع، وأصوات بعيدة لأشياء لم تعد موجودة، لكنها لم تُنسَ كل نسمة كانت تمر، تحمل معها صدى ضحكة رفل، أو همس كلمات لم تُقال، أو خفقة قلب لم تُسمع ، الأرض تحت الشجرة كانت مغطاة بطبقة كثيفة من الأوراق الصفراء، كل ورقة كذكرى انتهت، كل ورقة كانت تذكره بلحظة فقد، بلحظة فرح لم تُمسك بلحظة خوف لم تُبوح بها، بلحظة حب لم يُكتشف بالكامل ، أدم جلس طويلًا، يلمس ببصره كل زاوية من تلك الأرض، وكل ورقة متساقطة وكأنها صفحة من دفتر حياته، صفحات مليئة بالحياة بالفقد، بالحب، بالحنين، بالدرس الذي لا يُنسى ، أخرج أدم دفتره القديم، ذو الغلاف الباهت، والصفحات الصفراء التي تشبه أوراق الشجرة نفسها ، فتحه ببطء، وبدأ كتابة آخر الكلمات التي لم يستطع قولها أبدًا بصوت عالٍ ، كانت يده ثابتة، لكن قلبه كان يفيض بكل ما تعلمه، بكل ما عاشه، بكل ما فقده، بكل ما أحب: « الشجرة...أنتِ انتهيتِ، لكنك علمتني كل شيء. علمتني الحب بصمت، علمتني الغيرة بحذر، علمتني الفقد بطريقة لا تُنسى... علمتني أن القلب يمكن أن يحب بلا إمتلاك ، وأن الحب الحقيقي هو الذي يبقى رغم الغياب، رغم الفقد، رغم كل شيء... رفل... لم تتركي بصمة جسدية، لكن قلبك ظل هنا

في كل نظرة، في كل زهرة، في كل ورقة...في كل خطوة من خطوات حياتي...» رفع رأسه ببطء، ورفع عينيه إلى السماء حيث تتناثر أشعة الشمس بين الأغصان البالية ، النسيم كان يداعب وجهه برفق، يحمل معه رائحة الأرض، رائحة الغياب رائحة كل الحب الذي عاشه. شعور جديد بدأ يتسلل إلى قلبه شعور لم يعرفه من قبل : القدرة على البداية من جديد ، لم يكن هذا حبًا جديدًا، ولا لقاء جديدًا، بل شعور بالتحرر من الماضي بالقدرة على الحب بلا خوف، على الانتظار بصبر، على تقدير كل لحظة بصمت. لم يعد قلبه مقيدًا بالغياب، لم يعد أسير الذكريات المؤلمة بل أصبح قادرًا على أن يحتفظ بكل شيء في داخله كدرس كحقيقة، ككنز ، وقف طويلًا تحت الشجرة متأملًا كل لحظة عاشها مع رفل : ضحكتها الأولى عند النهر حين كانت خطواتها مترددة، وعيناها تتلمسان الهواء، كأنهما تبحثان عن عالم جديد لم تعرفه بعد ، نظرتها الخجولة عند لقائهما الأول، تلك النظرة التي لم تنسَها ذاكرته، رغم مرور السنوات صمتها الذي كان أبلغ من أي كلام، صمت أحتوى الفرح والحيرة، والخوف، وكل ما يمكن أن يخشاه قلب صغير يحاول أن يحب ، الرسائل الصغيرة التي تركتها، المكتوبة بخط رقيق، تحمل كلمات مختصرة، لكنها كانت

مليئة بالمعنى، بكل ما لم يقله أحد بصوت عالٍ ، الغياب الطويل الذي علّمه الصبر، والقوة، وكيفية مواجهة الفقد دون أن ينهار القلب ، كل هذه الذكريات لم تعد تؤلمه، بل أصبحت جزءًا منه جزءًا من قلبه، من شخصيته، من فهمه للحياة ، أدم شعر بأنه ناضج، وكأن كل ألم، كل فرح، كل حزن، كل ابتسامة، وكل دمعة شكلت طبقة جديدة في قلبه جعلته أقوى وأكثر وعيًا وأكثر قدرة على الحب والحياة معًا ، حمل الدفتر، ونهض ببطء، وابتسم للشجرة للمرة الأخيرة ، لم يلمس الأغصان، ولم يقطف أي ورقة ولم يحاول أن يعيش الماضي مرة أخرى. فقط وقف، وسمح لقلبه أن يعرف السلام ، سمح للذكريات أن تصبح دروسًا، وللحب أن يبقى خالدًا، بلا ألم، بلا سيطرة بلا خوف ، جلس مرة أخرى على الأرض، هذه المرة بدون دفء الذكريات فقط، بل بنظرة شاملة لكل ما حوله : الطريق الذي سارت عليه رفل، النهر الذي شهد أول لقاء بينهما، الطين الذي رسم فيه دوائر طفولته، كل حجر، كل ظل، كل نسيم ، كل شيء كان يذكّره بالماضي، لكنه لم يعد يرهق قلبه ، أصبح يعرف أن الحب الحقيقي، الحب العميق هو الذي يبقى في الداخل، في الصمت، في الذكرى، في كل شيء جميل مضى، حتى لو غاب عن الحاضر ، رفع عينيه مرة أخرى إلى

الشجرة ، ظل الأغصان الطويل على الأرض كان كظل الحب الحقيقي في قلبه : صامت خالد، حاضر دائمًا ، يعلم أن كلما جاء ربيع جديد، كلما رأى زهرة صغيرة، أو نسيمًا دافئًا، أو طريقًا قديمًا، سيعرف أنه عاش الحب الحقيقي، تعلم الصبر، تعلّم الفقد وتعلم أن القلب يستطيع أن يكون كاملًا رغم كل شيء ، مع غروب الشمس، وقف أدم للحظة، نظر إلى الطريق الذي سارت عليه رفل، شعر بالحرية بالشجاعة، وبالقدرة على الحب دون خوف، دون انتظار، دون سيطرة.

إبتسم مرة أخرى، وهذه المرة ابتسامة طويلة، ممتدة، نابضة بالسلام الداخلي الكامل، ابتسامة رجلٍ أحب بصدق، فقد، تعلّم ونضج، واستعد للحياة كما هي، للحب كما هو، دائمًا بصمت، خالدًا، لا يموت ، كانت هذه النهاية الرمزية، نهاية لا تعني الرحيل، بل تعني الفهم، والنضج، والسلام مع الذات، والحب الذي يظل رغم كل شيء ، الشجرة لم تمت، الذكريات لم تُمت والحب لم يمت ، كل شيء تغير، لكن الجوهر بقي خالداً.

الأفق الجديد

مَع كُل وداع

تَنبُت بداية

مرت الأيام ببطء، لكن لم تعد ثقيلة كما كانت ، الخريف بدأ يستقر في القرية، لكن أدم شعر بأن شيئًا ما بداخله قد تغير إلى الأبد ، كل صباح، كان يستيقظ بسلام مختلف، بوعي جديد وكأن قلبه أصبح أخف، وعقله أكثر صفاءً، وروحه أكثر استعدادًا لمواجهة ما سيأتي ، في أحد الأيام، خرج أدم إلى الطريق المؤدي إلى النهر، حيث اعتاد أن يذهب مع رفل ، الأرض مغطاة بطبقة من الأوراق المتساقطة، وألوانها تتدرج بين الأصفر الداكن والبرتقالي والذهبي ، الشمس كانت تكاد تختبئ بين الغيوم، لكن ضوءها كان يلمع على الماء، على الحجارة، وعلى كل شيء حوله، وكأنه يعلن بداية فصل جديد ، جلس على الحافة، وأخرج دفتره مرة أخرى، لكنه لم يكتب كلمات وداع هذه المرة ، كانت يداه تتوقفان عند كل تفصيل : صوت المياه المتدفقة، رائحة الطين الممزوجة بأوراق الخريف، انعكاس الأشجار في الماء، وصدى الرياح بين الأغصان ، شعر بأن كل شيء يتحدث إليه بطريقة لم

يعرفها من قبل : « الطبيعة، القرية، حتى الصمت نفسه ، كل شيء كان يهمس له : الأفق مفتوح...» المستقبل يبدأ الآن...لا شيء يموت، كل شيء يتجدد ، تذكر أدم الأيام التي عاشها، ليس بالحزن، بل بالتقدير ، تعلم أن الحب ليس فقط لحظة فرح أو ألم بل هو قوة خفية تبقى في الداخل، تعطي معنى لكل تجربة وتزرع في القلب استعدادًا للحياة، للآخر، ولذاتك ، بدأ يتحرك ببطء نحو القرية ، كل زاوية كان يمر بها تحمل ذكرى : الجسر القديم الحقول التي جمع فيها الحبوب مع والده الحاج محمد الطريق الذي تعلم عليه ركوب الدراجة، كل حجر كان شاهدًا على لحظة من طفولته ، لكنه لم يشعر بالأسى، بل بالامتنان الذكريات أصبحت وقودًا للمستقبل، لا أعباء على الحاضر وصل أدم إلى الشجرة التي لم تتغير كثيرًا رغم مرور المواسم ، وقف أمامها، لكن هذه المرة لم يكن شعور الفقد هو ما يملأ قلبه، بل شعور بالاحترام، بالسلام الداخلي، وبالوعد لنفسه بأن يعيش حياته بشجاعة، بحب وبإدراك أن كل تجربة، سواء كانت مؤلمة أو سعيدة، هي جزء من رحلة نضج القلب والروح ، جلس تحت الشجرة، وأخذ نفسًا عميقًا، شم الهواء، وسمع صوت الرياح وهي تحرك الأوراق ، شعر بشيء جديد : القدرة على اتخاذ قراراته بثقة،

على الحب بلا خوف، على تقدير كل شيء دون سيطرة، على العطاء بلا توقع مقابل ، مرت ساعات، الشمس بدأت تميل نحو الغروب، لكن أحمد لم يتحرك ، شعر بأن الحياة أمامه واسعة، وأن لكل خطوة يخطوها معنى. لم يعد يركض وراء الذكريات، ولم يعد يتشبث بالماضي، بل بدأ يشعر بحرية الاختيار، بحرية الحب، بحرية أن يكون هو نفسه بكل صدق ووعي ، قبل أن يغادر، نظر إلى الشجرة مرة أخرى، ابتسم ابتسامة طويلة، امتدت في كل أركان قلبه ، لم يعد هناك ألم، لم يعد هناك خوف، لم يعد هناك انتظار كان هناك سلام ووعي وحب للحياة كما هي، بكل تناقضاتها بكل جمالها وبساطتها ، ومع أول خطواته بعيدًا عن الشجرة، شعر أحمد بأن كل شيء ممكن : اللقاءات الجديدة، الأحلام الجديدة الفرص التي لم يعرفها بعد، والحياة التي تنتظره ليمسك بها بكل ما تعلمه ، كانت النهاية الرمزية للفصل السابق مجرد بداية حقيقية أفق جديد لا ينتهي، أفق يملؤه الأمل، والتجدد، والحب الصادق بصمت، خفي، خالد ، نظر إلى السماء، حيث الألوان تتغير بين الغروب والظل، وشعر بأن قلبه أصبح أوسع، مثل الأفق الذي يراه أمامه : لا حدود له، لا قيود، لا خوف. وأدرك أن الحياة تستمر دائمًا، وأن الحب الحقيقي لا يموت، بل يتحول إلى نور داخلي

يقود كل خطوة نحو الغد ، أغلق أدم عينيه للحظة، أخذ نفسًا عميقاً، وإبتسم ، كان ابتسامة الرجل الذي عاش الحب، فقده تعلم منه، ونضج ليواجه المستقبل بكل شجاعة وحرية ، كانت هذه بداية جديدة، أفق جديد، حياة جديدة، لكن كل شيء بدا مألوفًا بنفس الوقت : الهواء، الأشجار، الطريق، الماء، والحب الذي يبقى، صامتًا، حاضرًا، خالدًا...مثل قلب أدم ، مثل كل شيء جميل عاشه، وكل شيء سيعيشه بعد ذلك....فجر الغد أستفاق أدم في صباح خريفي جديد، والنسيم البارد يتسلل من خلال نوافذ غرفته، يحمل معه رائحة أوراق الخريف المبللة وأصوات الطيور البعيدة التي بدأت يومها في الغناء مع أول خيوط الشمس ، لم يكن بحاجة إلى أي شيء آخر ليشعر بالحياة، فقد كان كل شيء حوله ينبض بالوجود، كل شيء يحمل ذكريات الماضي لكنه يمنحه إحساساً بالأمل، بالمساحة المفتوحة، بالفجر الذي ينتظر خطواته ، جلس على حافة سريره، وفتح نافذة غرفته ينظر إلى القرية التي باتت تبدو له مختلفة ، لم تعد كما كانت في أيام الحنين والفقد، بل أصبحت مكانًا يحتضن الحاضر، يحمل في تفاصيله الفرصة للبدايات الجديدة، لكل خطوة يمكن أن يخطوها قلبه بحرية ، خرج أدم إلى الخارج، وبدأ سيره في الطريق الترابي

المؤدي إلى النهر ، كل خطوة كانت كأنها تؤكد له شيئًا : الحياة مستمرة، والأمل موجود، والقلب قادر على التجدد مهما كان الألم السابق عميقًا.

التفت رفل إلى الشجرة القديمة، شجرة المشمش، وظلها الطويل يمتد على الأرض مثل خط يرسم اتجاه المستقبل، أو كخيط يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل ، جلس تحت الشجرة كما اعتاد لكنه هذه المرة شعر بأنها ليست مجرد شجرة تحمل الذكريات، بل كانت مرآة قلبه ، كل عقدة في جذعها، كل شق في لحائها، كل ورقة متساقطة، كانت تعكس مراحل حياته : طفولته البريئة، شبابه المتردد، أحلامه، آماله، فوضى قلبه، ونضج روحه ، أخذ دفتره لكنه لم يبدأ بالكتابة على الفور ، جلس صامتًا، مستمعًا لكل شيء حوله : صوت المياه التي تتدفق في النهر، أصوات الطيور حفيف الأوراق، نسيم الهواء الذي يلمس وجهه ويثير في داخله شعورًا بالسلام الداخلي ، شعر أدم بأن كل شيء، حتى صمت القرية، له رسالة ، كل ما كان يراه من حوله أصبح أكثر وضوحًا الآن: الحجر القديم الذي جلس عليه مع أصدقائه أيام الطفولة الطريق الذي مرّ عليه كل يوم إلى المدرسة، الطين الذي رسم فيه دوائر وعلامات صغيرة في صغره، كل شيء أصبح جزءًا من فهمه

للحياة ، بدأ أدم الكتابة أخيرًا، لكن ليس كالسابق ، لم يكن يكتب عن الحب أو الفقد فقط، بل عن الحياة نفسها، عن كل شيء يحيط به، عن كل درس تعلمه، عن كل شعور صامت اختبره، عن كل لحظة مرت دون أن يلاحظها أحد إلا قلبه « اليوم أرى كل شيء بوضوح أكبر...أرى الطرق التي اخترتها، وأرى الأخطاء التي ارتكبتها، وأرى الحب الذي عشناه، والفقد الذي ألمّ بنا. أرى نفسي كما أنا، بلا قناع، بلا خوف، بلا انتظار ، أرى أن كل تجربة، كل دمعة، كل ضحكة، كل خيبة أمل كانت تعدني لما هو قادم...كانت تصنع مني شخصًا يستطيع الحب بلا قيود والعيش بلا خوف، والتقدير بلا توقع » رفع رأسه، نظر إلى السماء حيث الغيوم تتباعد لتكشف عن شمس خفيفة، شعاعها يلمس الماء، الأشجار، والأرض، كأنه يدعوه للانطلاق نحو فجر جديد ، شعر بشيء لم يشعر به من قبل : إحساس بالحرية المطلقة حرية أن يكون هو نفسه، حرية أن يحب الحياة كما هي، بكل جمالها وقسوتها، بكل الفرص والخسائر التي قد تأتي ، وقف أدم وأخذ نفساً عميقاً، شعر بأن كل خلية في جسده تنبض بالقوة بالحياة، بالإمكانيات ، لم يكن مجرد شعور بالتفاؤل، بل شعور بالوعي الكامل، بأن كل شيء ممكن، وكل خطوة مستقبلية هي

فرصة لاكتشاف نفسه أكثر، واكتشاف الآخرين، والحياة نفسها بدأ يسير في القرية، هذه المرة بعيون مختلفة، بوعي كامل، وكأن كل شيء جديد : كل بيت، كل زقاق، كل رائحة، كل ضحكة أطفال يلعبون في الطرقات ، لم يكن الماضي يطارده، ولم تعد الذكريات تثقل قلبه، بل أصبح كل شيء أرضية للإبداع، للحب للفرح، لكل ما هو ممكن في الحياة ، أدرك أدم أن الحب الحقيقي ليس فقط ما عاشه مع رفل، بل كل شيء بعد ذلك : القدرة على التقدير، على الصبر، على العطاء بلا إنتظار، على أن يكون حاضرًا بالكامل في كل لحظة، مهما كانت بسيطة أو كبيرة ، لم يعد يبحث عن اكتمال خارجي، بل أصبح يعرف أن الاكتمال يأتي من الداخل، من قلب ناضج، وروح حرة، وعقل يقبل التجربة بلا خوف ، جلس على صخرة قرب النهر، أمعن النظر في انعكاس الأشجار في الماء، ورأى نفسه فيها: رجل تغيرت ملامحه أصبح أكثر هدوءًا، أكثر ثقة، وأكثر استعدادًا لكل ما يأتي ابتسم ابتسامة طويلة، امتدت إلى أعماق قلبه، كانت ابتسامة الرجل الذي عاش الحب، فقده، تعلم منه، ونضج ليبدأ الفصل الحقيقي في حياته : فصل الأمل، الاكتشاف، والإبداع الداخلي، والحياة بلا خوف، ظل أدم هناك ساعات، يستمع إلى كل صوت، يشعر

بكل نسمة، يلمس كل ورقة على الأرض، يدرك أن كل شيء يمكن أن يكون بداية جديدة، كل شيء يحمل معنى، وكل خطوة إلى الأمام هي رسالة من الحياة لتذكيره بأن الطريق مفتوح دومًا مع غروب الشمس، نظر إلى الأفق، إلى الألوان المتدرجة بين البرتقالي والزهري والأزرق الداكن ، شعر بأن قلبه أصبح أوسع من أي وقت مضى، وكأن كل حب عاشه، كل فقد مرّ به، كل درس تعلمه، أصبح نورًا داخليًا يقوده نحو الغد، نحو الأفق الجديد، نحو كل ما هو ممكن في الحياة ، كان هذا الفجر الجديد، أول فجر حقيقي بعد كل الماضي، بعد كل الدروس، بعد كل الحب والفقد والحنين، بداية فصل لم يعرفه قلبه من قبل، فصل يتيح له أن يعيش، أن يحب، أن يقدّر، أن يخطو للأمام دون خوف، بلا قيود، بصمت ووعي كامل...

نورُ الغدِ

يولدُ الأملُ

من قلبِ الظلَامِ

أستفاق أدم في صباح صيفي خفيف، حيث كانت الشمس تكاد تتسلل بخفة بين الأغصان، تتخلل نافذة غرفته لتضيء زاويته المفضلة، زاوية الطاولة التي اعتاد أن يكتب عليها منذ أيام الطفولة رائحة الأرض بعد المطر، امتزجت برائحة أوراق الشجر التي بدأت تتحول بين الأخضر والذهبي، ورائحة النسيم الذي يحمل معه وعدًا باليوم الجديد، كانت كافية لتوقظ فيه إحساسًا لم يعرفه منذ فترة طويلة : إحساس بالفرح الخفي، بالسلام الداخلي، بالإمكانية التي تتيحها الحياة دومًا.

خرج أدم إلى الخارج، بدأ بخطواته المعتادة نحو الطريق الترابي المؤدي إلى النهر، الطريق الذي رافق خطواته منذ صغره ، لكنه هذه المرة لم يكن يسير بصمت متردد أو قلب مثقل بالحنين، بل بخطوات واثقة، بوعي كامل، وبإحساس أن كل شيء حوله يحمل رسالة يحمل درسًا، يحمل فرصة جديدة. كل حجر، كل طين، كل أثر قدم، أصبح الآن جزءًا من فهمه للحياة، وكأن الطبيعة بأكملها

تتحدث معه بصوت خافت لكنه مؤثر، يقول له : « انظر استمع عش، وافهم...كل شيء يحدث لسبب...وكل شيء يحمل معنى ».

عند وصوله إلى شجرة المشمش، لم يكن هناك شعور بالحزن، ولا بالحنين كما في الماضي ، وقف أمامها، تنفس بعمق، وأحس بأن جذورها ليست مجرد جذور، بل خيوط ربطت قلبه بالماضي وربطته بالحياة نفسها، بكل حب عاشه، بكل فقد تحمله، بكل درس تعلمه ، كان يستطيع الآن أن يرى الشجرة بعين جديدة : رمز للنمو، للصبر، وللقدرة على النهوض بعد كل تجربة صعبة.

جلس تحت الشجرة، وأخذ دفتره، لكنه لم يبدأ بالكتابة بعد جلس هادئًا، مستمعًا لكل صوت حوله : همسات الرياح بين الأغصان، حفيف الأوراق، صوت الطيور البعيدة، انعكاس الشمس على النهر، رائحة الطين الممزوجة بالماء، كل شيء كان يحمل له رسالة.

إبتسم آدم، ثم بدأ يكتب، لكن هذه المرة كانت كتابته عن الحياة نفسها، عن كل ما يحيط به، عن ذاته التي أصبحت أقوى، عن الحب الذي يمكن أن يمنح بلا خوف، عن الفقد الذي أصبح درساً، عن الفرح الذي أصبح حاضرًا في أبسط اللحظات :« اليوم

أرى كل شيء بوضوح أكبر ، أرى الطريق الذي اخترته، والأخطاء التي ارتكبتها، والفرص التي فوتتها، والحب الذي عشناه أرى نفسي كما أنا الآن، بلا أقنعة، بلا خوف، بلا إنتظار ، أرى أن كل دمعة، كل ابتسامة، كل لحظة فرح أو حزن، كانت تعدني لما هو قادم...كانت تصنع مني شخصًا قادرًا على الحب بلا قيود على العيش بلا خوف، وعلى تقدير كل شيء بصمت »

رفع رأسه، نظر إلى السماء، حيث تتباعد الغيوم لتكشف عن شمس ناعمة، شعاعها يلمس الماء، الأشجار، والأرض، وكأنه يدعوه للإنطلاق نحو فجر جديد، نحو أفق لم يعرفه قلبه من قبل بدأ آدم يتحرك ببطء في القرية، يلمس كل شيء بوعي كامل : الحجر القديم الذي جلس عليه مع أصدقائه أيام الطفولة، الطريق الذي مرّ عليه كل يوم إلى المدرسة، الطين الذي رسم فيه دوائر وعلامات صغيرة في صغره، كل شيء أصبح له معنى، كل شيء أصبح جزءًا من قصة الحياة التي يعيشها الآن.

جلس على صخرة قرب النهر، أمعن النظر في انعكاس الأشجار في الماء، ورأى نفسه فيها : رجل تغيرت ملامحه، أصبح أكثر هدوءًا، أكثر ثقة، وأكثر استعدادًا لكل ما يأتي، لم يعد يركض وراء

الذكريات، ولم تعد الذكريات تثقل قلبه، بل أصبح كل شيء أرضية للإبداع، للحب، للفرح، لكل ما هو ممكن في الحياة.

سقطت ورقة صفراء من الشجرة فوق دفتره، كأنها رسالة صغيرة من الماضي تقول : « كل شيء مضى، وكل شيء حاضر، وكل شيء ممكن غدًا »...إبتسم أدم إبتسامة طويلة، أمتدت إلى أعماق قلبه، ابتسامة الرجل الذي عاش الحب، فقده، تعلم منه ونضج ليبدأ الفصل الحقيقي في حياته : فصل الأمل، الإكتشاف والإبداع الداخلي، والحياة بلا خوف.

جلس ساعات طويلة، مستمعًا لكل نسمة، كل صوت، كل حركة، مدركًا أن كل شيء حوله هو درس، وكل خطوة هو فرصة جديدة، وكل لحظة يمكن أن تكون بداية لما لم يعرفه بعد ، ومع غروب الشمس، نظر إلى الأفق، إلى الألوان المتدرجة بين البرتقالي والزهري والأزرق الداكن، شعر بأن قلبه أصبح أوسع من أي وقت مضى.

كل حب عاشه، كل فقد مر به، كل درس تعلمه، أصبح نورًا داخليًا يقوده نحو الغد، نحو الأفق الجديد، نحو كل ما هو ممكن في الحياة، كان هذا الفجر الجديد، أول فجر حقيقي بعد كل الماضي بعد كل الدروس، بعد كل الحب والفقد والحنين، بداية فصل لم

يعرفه قلبه من قبل، فصل يتيح له أن يعيش، أن يحب، أن يقدّر أن يخطو للأمام دون خوف، بلا قيود، بصمت خالد ووعي كامل...ومع آخر شعاع شمس قبل الغروب، نهض آدم من مكانه كأنّه ينهض من عمر كامل وليس من لحظة عابرة. حمل دفتره بين يديه بحذرٍ يشبه حنان الوداع، ثم بدأ يمشي ببطء مبتعدًا عن النهر وعن الشجرة وعن كل ما عاشه هناك ، لم يلتفت إلى الوراء، ليس لأنه نسي، بل لأنه أدرك أخيرًا أن بعض الأماكن لا تُودَّع بالعيون بل بالقلب، وأن بعض اللحظات يجب أن تُترك كما هي، مخزنة في صمتها ودفء ذكرياتها.

كانت خطواته خفيفة لكنها محمّلة بكل ما مرّ به، بكل ضحكة ضاعت ، وبكل صمت طال أكثر مما يجب وبكل حب ظل حيًا رغم كل ما انكسر ، تذكر كيف كان يجلس هناك عند جذع الشجرة يكتب ولا يكتب، يراقب ولا يتكلم ينتظر ولا يعرف ماذا ينتظر، وكيف كانت الأيام تمرّ عليه ببطء كأنها تختبر صبره، وكيف كان قلبه يضيق ثم يتسع فجأة لأي ذكرى أو نظرة أو اسم كفيل أن يعيد إليه الحياة.

توقف لحظة، ليس ليرجع، بل ليشعر أكثر، ليحس بعمق ما ترك خلفه وما ينتظره ، أغلق عينيه، ومرت أمامه كل الحكايات دفعة

واحدة، كأن الزمن قرر أن يختصر كل ما مضى في ومضة واحدة: وجوه، أصوات، وعود، غياب، وحب لم يُكتمل، واسم رفل الذي ظل يهمس في داخله بلا صوت لكنه واضح في قلبه ، ابتسم ليس لأن الألم انتهى، بل لأنه تعلّم كيف يحمله دون أن ينكسر. فهم أخيرًا أن الحب لا يُقاس بالنهايات، وأن بعض الأشخاص لا نبقى معهم، لكنهم لا يغادروننا أبدًا، وأن أثرهم يبقى حاضرًا حتى بعد الرحيل.

فتح عينيه مرة أخرى، فوجد الغروب قد اكتمل، والسماء تلوّنت بلون يشبه الحنين، وكأن الكون كله يشاركه هذه اللحظة، لحظة أن يترك ما كان ليصير ما يجب أن يكون ، أخذ نفسًا عميقًا وكأنه يسحب آخر ما تبقى من الأمس، ثم أطلقه ببطء ليحرر نفسه من كل ثقل وألم ، ولم يعد ذلك الفتى الذي يخاف من الغد، ولم يعد قلبه ذلك القلب الذي ينتظر من يفهمه ، أصبح يفهم نفسه أخيرًا، وكان هذا كافيًا ليبدأ من جديد.

مشى آدم خطوات طويلة، وكل خطوة تقول له شيئًا مختلفًا : الحياة لا تنتظر المترددين، والطرق لا تُكشف إلا لمن يجرؤ على السير والخسارات ليست نهاية الحكاية، بل أحيانًا بدايتها الحقيقية كان يحمل قلبًا مستعدًا لكل ما هو قادم، وذهنًا صافٍ كسماء

بعد المطر، وروحًا حرة لم تعد تخاف القيود، وشجاعة لم يعرفها من قبل، شجاعة أن يكون نفسه بلا اعتذار.

تذكر كم مرة تراجع وكم مرة خاف وكم مرة صمت، ثم أدرك أنه رغم كل ذلك وصل أخيرًا، ليس إلى مكان محدد، بل إلى ذاته. الذات، حين تُكتشف، تصبح وطنًا لا يُفقد ، ابتسم مرة أخرى هذه المرة بصدق كامل، ليس لأن الطريق أصبح سهلاً، بل لأنه صار مستعدًا له ، لم يعد يسأل : ماذا لو...؟

ولم يعد يخاف : ماذا بعد...؟

صار يمشي ويثق أن كل ما سيأتي سيجده فيه أقوى وأصدق وأقرب ، وفي داخله كان هناك شعور واحد يتردد بلا توقف : الحياة أمامه، والحب بداخله، والأمل دائم، والروح حرة ، فامضِ عش، وكن حاضرًا بكل صدقك ، ومع اختفاء آخر خيط من الضوء، لم يشعر بالظلام، بل شعر أخيرًا بأنه بدأ يرى، وأن هذه هي اللحظة التي ينطلق فيها نحو حياته الحقيقية، بروح مفتوحة وقلب مستعد لكل ما هو آتٍ.

على ضفاف ما تبقّى

لا نعود كما كنّا

بل نصبح كما يجب أن نكون

الصباح لم يكن مختلفًا عن بقية الصباحات التي عرفها آدم طوال حياته، ومع ذلك، كان هناك شيء خفيّ في الضوء جعله يشعر بأن هذا اليوم لا يشبه ما سبقه، تسلّل نور الشمس عبر أغصان شجرة المشمش القريبة من نافذته، وتكسّر بهدوء على زجاجها قبل أن يمتدّ إلى داخل الغرفة ويلامس حوافّ الأشياء القديمة التي لم تتغيّر منذ سنوات.

كانت الغرفة كما هي : السرير الخشبي في زاويته المعتادة، الطاولة الصغيرة التي تراكمت فوقها دفاتر قديمة، والكرسي الذي لم يعد يجلس عليه كثيرًا ، كل شيء بدا ثابتًا، لكن إحساسه تجاهه لم يعد كذلك ، كان ينظر إلى هذه التفاصيل بعين مختلفة، كأنّه يراها للمرّة الأولى، أو كأنّها لم تعد تخصّه بالكامل.

استيقظ دون تردّد، دون ذلك الثقل الذي اعتاد أن يشعر به في الصباحات السابقة ، لم يكن هناك صراع داخلي بين الرغبة في

البقاء في السرير والهروب من يوم جديد، بل كان هناك نوع من القبول الهادئ، كأنّه استيقظ لأنه مستعد، لا لأنه مضطر.

جلس على حافة السرير، وبقي لدقائق دون أن يفعل شيئًا ،لم يكن يفكّر في شيء محدّد، لكنه لم يكن فارغ الذهن أيضًا ، كانت أفكاره تمرّ ببطء، دون أن تتصادم، دون أن تجرّه إلى مكان لا يريد الذهاب إليه ، وهذا، بحدّ ذاته، كان جديدًا عليه.

أدار نظره نحو النافذة ، كانت شجرة المشمش ساكنة، إلا من حركة خفيفة في أطراف أوراقها، تشير إلى نسيمٍ بارد يمرّ من هناك. تذكّر كم من مرّة وقف عند هذه النافذة، يراقب نفس الشجرة بنفس التفاصيل تقريبًا، لكن بمشاعر مختلفة تمامًا ، في السابق كانت هذه الشجرة تفتح داخله أبوابًا من الذكريات، بعضها جميل، وبعضها أثقل من أن يُحتمَل ، أمّا الآن، فقد كانت مجرّد شجرة... أو ربما أكثر من ذلك بقليل، لكن دون ألم.

نهض بهدوء، وتقدّم نحو النافذة ، فتحها ببطء، فاندفع الهواء البارد إلى الداخل، حاملاً معه رائحة الأرض بعد المطر ، توقّف لثوانٍ يستنشق هذا الهواء، وكأنّه يحاول أن يتأكّد من أنّه حاضر فعلًا لا غارق في ذكرى أو فكرة.

لم يكن هناك شيء عاجل بانتظاره، ولا شيء يخشاه ، هذا الفراغ الذي كان يخيفه سابقًا، لم يعد كذلك ، أصبح مساحة يمكنه أن يكون فيها كما يريد، دون ضغط أو استعجال.

ارتدى ملابسه ببطء، دون أن يفكّر كثيرًا في ما سيقوم به خلال اليوم ، لم يكن بحاجة إلى خطة واضحة ، كان يكفيه أن يخرج، أن يمشي، أن يرى ما حوله بعين لا تبحث عن شيء محدّد.

عندما خرج من الغرفة، مرّ في أرجاء البيت كما لو أنّه يودّعه بطريقة غير مباشرة ، الجدران التي شهدت مراحل مختلفة من حياته، الأصوات التي كانت تملأ المكان في أوقات سابقة، والهدوء الذي استقرّ فيه لاحقًا...كل ذلك مرّ أمامه دون أن يثير داخله تلك العواصف التي كان يعرفها جيدًا ، فتح باب المنزل، وخرج إلى الخارج.

الطريق الترابي كان رطبًا قليلًا، آثار المطر لا تزال واضحة عليه كانت هناك برك صغيرة من الماء تعكس السماء بشكل غير مكتمل، وكأنّها تحاول أن تحتفظ بجزء منها قبل أن تجفّ، سار بخطوات هادئة، دون استعجال، يلاحظ التفاصيل التي لم يكن يلتفت إليها من قبل.

كان يعرف هذا الطريق جيدًا ، سلكه مئات المرّات، في طفولته في مراهقته، وحتى في الأيام التي كان يشعر فيها بثقلٍ كبير يدفعه إلى الهروب من كل شيء ، لكن هذه المرّة، لم يكن الهروب هو ما يدفعه للمشي، بل شيء أقرب إلى الفضول الهادئ...أو ربما الرغبة في أن يكون حاضرًا فقط.

على جانبي الطريق، كانت الأشجار تبدو مختلفة ، لم تتغيّر في شكلها، لكن تغيّر إحساسه بها ، لم تعد مجرّد خلفية تمرّ بها خطواته، بل أصبحت جزءًا من المشهد الذي يعيشه ببطء أوراقها التي بدأت تميل إلى اللون الذهبي لم تكن علامة على نهاية بل على تحوّل طبيعي لم يعد يخيفه.

تابع السير حتى بدأ صوت الماء يصل إلى سمعه ، لم يكن مرتفعًا بل خافتًا، لكنه واضح بما يكفي ليخبره أنّه يقترب من النهر ، هذا الصوت، الذي كان يثير داخله حنينًا مؤلمًا في السابق، لم يعد يحمل نفس الثقل ، كان مجرّد صوت ماء... مستمر، لا يتوقّف لا يعود إلى الوراء.

عندما وصل، توقّف لثوانٍ ، نظر إلى النهر، كما لو أنّه يراه للمرّة الأولى، لم يحاول أن يربطه بشيء من الماضي، لم يبحث فيه عن انعكاسات قديمة، ولا عن صورٍ كان يحتفظ بها ، اكتفى بأن يراه

كما هو : ماء يتحرّك بهدوء، يعكس الضوء، ويمضي دون أن يسأل.

اقترب أكثر، وجلس على صخرة قريبة من الضفّة ، وضع يديه على ركبتيه، وبقي صامتًا ، لم يكن هذا الصمت ثقيلًا كما اعتاد بل كان مريحًا، كأنّه أخيرًا وجد مكانًا لا يحتاج فيه إلى تفسير ما يشعر به.

بقي هناك لبعض الوقت، لا يقيسه بالدقائق أو بالساعات ، كان الوقت يمرّ، لكنه لم يكن يعنيه كثيرًا ، ما كان يهمّه هو هذا الشعور البسيط بالوجود، دون أن يكون عليه أن يثبت شيئًا لنفسه أو لغيره.

بعد فترة، نهض ببطء، واتجه نحو شجرة المشمش القريبة ، توقّف أمامها ، لم يمدّ يده فورًا، ولم يجلس كما كان يفعل في السابق بقي واقفًا، يتأمّلها، وكأنّه يحاول أن يفهم العلاقة الجديدة التي أصبحت تربطه بها ، لم تعد رمزًا لشيء محدّد، ولم تعد تختصر حكاية كاملة، بل أصبحت جزءًا من حياته...دون أن تختصرها.

مدّ يده أخيرًا، ولمس جذعها.

كان الملمس خشنًا كما هو، لكن الإحساس كان مختلفًا ، لم يعد يحمل ذلك الشوق المختلط بالألم، بل كان أقرب إلى اعتراف

هادئ بكل ما مرّ به. لم يكن يحاول استعادة شيء، ولم يكن يحاول نسيانه.

جلس تحتها، مستندًا إلى الجذع ،أغمض عينيه ، ثم فتحهما ببطء في تلك اللحظة، أدرك شيئًا بسيطًا، لكنه واضح : أن كل ما كان يحاول الإمساك به في السابق...لم يكن بحاجة إلى أن يُمسَك وأن كل ما كان يخاف فقدانه...قد فقده بالفعل، ومع ذلك، هو ما زال هنا...لم يشعر بالانتصار، ولم يشعر بالخسارة.

شعر فقط... بالهدوء.

بقي آدم جالسًا تحت شجرة المشمش وقتًا لم يحاول أن يحسبه كانت الشمس تميل ببطء نحو الغروب، والضوء يتغيّر تدريجيًا، من ذلك الصفاء الصباحي إلى دفءٍ أكثر عمقًا، كأن النهار نفسه يمرّ بمرحلة نضج تشبه ما مرّ به.

لم يكن يفكّر في شيء محدّد، لكنه لم يكن فارغًا ، كان يشعر بأن كل ما عاشه، بكل تفاصيله، حاضر فيه الآن، لكن بطريقة مختلفة؛ لا يثقل قلبه، ولا يشتته، بل يستقرّ فيه بهدوءٍ يشبه الفهم.

رفع نظره نحو الأفق ، كانت الألوان تمتدّ في السماء دون حدود واضحة، تندمج وتتلاشى في بعضها البعض دون صراع، وكأنها تقول إن التناقضات لا تحتاج دائمًا إلى حلّ، بل إلى قبول ، تنفّس

بعمق ، وللمرّة الأولى، لم يكن هذا النفس محاولة للهروب من شيء، ولا محاولة للتمسّك بشيء ،كان مجرّد فعل طبيعي...كأنّه أخيرًا عاد إلى إيقاعه الخاص.

مدّ يده نحو الأرض، التقط ورقةً جافة كانت قد سقطت للتو. تأمّلها للحظات ، كانت هشّة، خفيفة، لكنها لم تبدُ ميتة كما كان يظن دائمًا ، كانت تبدو وكأنها أنهت دورها ببساطة، دون مقاومة، دون ندم ، تركها تسقط من يده ، تابعها بنظره وهي تستقرّ على التراب، ثم أدرك أن كل ما كان يخشاه في السابق النهايات، الفقد، التغيّر ، لم يكن في الحقيقة نهاية كما تصوّر، بل انتقالًا هادئًا من شكل إلى آخر.

نهض ببطء ، لم يكن في داخله ذلك التردّد الذي كان يلازمه في كل مرة يهمّ فيها بالمغادرة. لم يشعر أنه يترك شيئًا خلفه، ولم يشعر أنه يحمل معه شيئًا ثقيلًا. كان فقط...يتحرّك.

نظر إلى شجرة المشمش مرّة أخيرة ، لم يقل وداعًا ، ولم يشعر بالحاجة إلى ذلك ، لأنّه فهم، أخيرًا، أن الأشياء التي تكون جزءًا حقيقيًا منّا لا تحتاج إلى وداع، ولا ترحل فعليًا ، هي تتغيّر فقط كما نتغيّر نحن، لكنها تبقى...بطريقةٍ ما ، ثم بدأ السير...

الطريق الترابي الذي سار عليه صباحًا بدا مختلفًا الآن، ليس لأنه تغيّر، بل لأن الضوء تغيّر، ولأن نظرته إليه تغيّرت ، الظلال أصبحت أطول، والأصوات أكثر هدوءًا، وكأن القرية كلها تستعدّ للراحة.

مرّ بالأماكن التي يعرفها جيدًا، لكنه لم يتوقّف طويلًا عند أيٍّ منها لم يعد يشعر بالحاجة إلى استرجاع ما كان، أو مقارنة ما أصبح بما مضى ، كل شيء أخذ مكانه داخله، دون صراع.

عندما اقترب من البيوت، سمع ضحكات الأطفال من بعيد توقّف... لا ليراقبهم كما كان يفعل سابقًا، بل ليستمع فقط كانت الضحكات بسيطة، غير معقّدة، لا تحمل أيّ معنى خفي...ومع ذلك، كانت كافية.

ابتسم ، لم تكن ابتسامة عابرة، بل كانت هادئة، صادقة، خالية من أي محاولة لإثبات شيء.

تابع السير ، ومع كل خطوة، كان يشعر بأن المسافة التي يقطعها ليست فقط في المكان، بل في داخله أيضًا ، كأنّه يترك وراءه طبقات قديمة من نفسه، لا لأنه يرفضها، بل لأنه لم يعد بحاجة إليها.

عند حافة القرية، توقّف ، نظر إلى الأفق مرّة أخرى ، كانت الشمس قد اقتربت من الاختفاء، والضوء الأخير ينسحب ببطء تاركًا خلفه هدوءًا واسعًا ، لم يشعر بالحزن لهذا الغياب، ولم يفكّر في عودة الصباح. كان يكتفي بأن يرى اللحظة كما هي.

في تلك اللحظة، تذكّر كل ما مرّ به ، ليس كذكريات منفصلة، بل كسلسلة متّصلة قادته إلى هنا ، الطفولة بكل براءتها، المراهقة بكل ارتباكها، الحب بكل اندفاعه، الفقد بكل ثقله، ثم تلك المرحلة الطويلة من التيه... قبل أن يصل إلى هذا الوضوح الهادئ.

وللمرّة الأولى، لم يسأل : لماذا حدث كل هذا...؟

بل فهم...فهم أن كل ما حدث، لم يكن ليأخذه إلى مكانٍ آخر بل ليعيده إلى نفسه ، لم يكن الهدف أن يتجنّب الألم، ولا أن يحتفظ بالسعادة، بل أن يمرّ بكل ذلك...ويتعلّم كيف يبقى...؟

أغمض عينيه للحظة ، لم يكن هناك شيء ينقصه ، لم يكن هناك شيء يحتاج أن يستعيده ، فتح عينيه ، وأدرك ببساطة : أن الحياة لم تكن يومًا تنتظر أن يكون مستعدًا، لكنّه الآن...أصبح كذلك.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم بدأ السير من جديد ، هذه المرة، لم يكن هناك شيء يربطه بالمكان الذي كان فيه قبل قليل، ولا شيء يدفعه نحو مكان محدّد. لم يكن يسير نحو هدف واضح، بل كان

يسير لأنه يريد أن يستمر ، ومع كل خطوة، كان يشعر بشيء يتّسع داخله ، ليس فراغًا...بل مساحة للحياة كما هي، دون شروط ، مساحة للحب، دون خوف من فقده ، مساحة للذكريات، دون أن تتحوّل إلى عبء ، ومساحة لنفسه...كما لم يعرفها من قبل.

عندما اختلطت ألوان الغروب بالظلام، لم يشعر بأن شيئًا ينتهي بل بأن شيئًا يهدأ. وكما يهدأ النهار دون أن يموت، كان داخله يهدأ أيضًا ، توقّف...نظر إلى الطريق الذي أمامه ، ثم إلى السماء ، ثم إلى نفسه...دون أن ينظر في مرآة ، واكتفى بابتسامة.

ابتسامة رجلٍ لم يعد يبحث عن إجابات، لأنه لم يعد خائفًا من الأسئلة ، ابتسامة رجلٍ لم يعد ينتظر أن تعود الأشياء، لأنه فهم أن ما يعود... ليس كما كان، وأن هذا...ليس نقصًا، بل نضج.

ابتسامة رجلٍ تعلّم أن الحب لا يُقاس بالبقاء، بل بالأثر.

وأن الفقد لا يُقاس بالغياب، بل بما يتركه من فهم.

وأن الحياة...لا تُعاش مرة واحدة، بل تُولد في داخلنا...كلّما فهمناها أكثر...دون تردّد، ومضى الوقت...ببطءٍ لم يلحظه أحد في البداية.

كانت الشمس قد انحنت نحو الغروب، ثم انسحبت بهدوء، تاركةً خلفها ظلالًا طويلة امتدّت فوق طرق القرية، قبل أن يزحف الليل تدريجيًا، كما يفعل دائمًا، دون استعجال...ودون أن يلفت الانتباه.

في البيت، لم يكن غياب آدم مقلقًا في الساعات الأولى ، اعتادوا أن يخرج، أن يمشي طويلًا، أن يعود متأخرًا أحيانًا وهو يحمل صمته معه ، لكن هذه المرّة...كان هناك شيء مختلف.

مرّت الساعات ، ثم بدأ الليل يثقل على المكان ، نادت والدته حسناء اسمه أكثر من مرّة ، في البداية بنبرة عادية، ثم بشيء من القلق الذي حاولت إخفاءه ، لم يجبها أحد.

نظر والده الحاج محمد إلى الباب، كأنّه ينتظر أن يُفتح في أي لحظة، أن يدخل آدم بهدوئه المعتاد، أن يقول كلمة قصيرة، أو يكتفي بنظرة...لكن الباب بقي ساكنًا.

شيء غير مريح بدأ يتمدّد في المكان ، لم يكن خوفًا واضحًا بعد...بل كان شعورًا غامضًا، كأنّ القلب يعرف ما لا يريد العقل تصديقه.

خرج والده يبحث عنه ، تبِعته والدته، وهي تحاول أن تتمسّك بأي احتمال بسيط يطمئنها ، سارا في طرق القرية، يناديان اسمه

يسألان من يمرّ، ينظران في كل زاوية اعتاد أن يقف فيها ، لكن الليل كان صامتًا ، بطريقة لم يعتادوها.

كل شيء بدا ساكنًا أكثر من اللازم...كأن القرية نفسها تحبس أنفاسها ، ومع كل خطوة، كان القلق يتحوّل إلى شيء أثقل، إلى خوفٍ واضح، إلى إحساسٍ بغيابٍ لا يشبه الغيابات السابقة ثم...اتجها نحو النهر.

نفس الطريق الذي يعرفانه جيدًا ، نفس الأشجار، نفس الأرض نفس الصمت...لكن هذه المرّة، كان كل شيء يبدو أبعد ، وعند شجرة المشمش...توقّف والده فجأة ، كأن قدميه رفضتا أن تقتربا أكثر.

رأه...كان جالسًا هناك...مستندًا إلى جذع الشجرة، ذراعاه تحيطان بها، كما لو أنّه يحتضنها، أو كأنّه وجد أخيرًا مكانًا يستقرّ فيه دون أن يُقلقه شيء.

لم يكن هناك اضطراب في ملامحه ، لم يكن هناك أثر خوف كان هادئًا...بهدوءٍ لم يعرفه أحد فيه من قبل ، اقتربت والدته بخطوات مرتجفة ، نادت اسمه، بصوتٍ انكسر قبل أن يكتمل ، لم يجب...لم يتحرّك..!.

وضعت يدها على كتفه...بارد.

تجمّد الزمن في تلك اللحظة ، ولم يكن هناك تفسير، ولا استيعاب، ولا حتى صدمة واضحة في البداية ، فقط... فراغ ثم، فجأة، انكسر كل شيء.

تحوّل الصمت إلى صراخٍ لم يكن صوتًا فقط...بل كان وجعًا خرج دفعةً واحدة، كأنّه كان ينتظر هذه اللحظة منذ زمن، انهارت والدته بجانبه، تمسكه كما لو أنّها تستطيع أن تعيده، تناديه باسمه مرارًا، كأن الاسم وحده يكفي ليعيده إلى الحياة.

وقف والده قريبًا، عاجزًا عن الاقتراب أكثر، وعاجزًا عن الابتعاد.

كانت عيناه معلّقتين به، لا تصدّقان، ولا تنكران ، كل شيء انتهى...لكن ملامحه لم تقل ذلك ، كان يبدو...كأنّه نائم ،كأنّه اختار أن يستريح أخيرًا، بعد رحلةٍ طويلة لم يفهمها أحد بالكامل ، بين يديه، كان دفتره ، انزلق قليلًا، فسقطت منه ورقة حملها والده بيدٍ مرتجفة ، قرأ...كانت الكلمات بسيطة لكنها لم تكن عابرة : « لم أعد أبحث عنها...لكنها في كل ما حولي...

في الضوء، في النهر، في الشجرة...

وفي هذا السلام الذي أشعر به الآن...

رفل...لم تذهبي...

أنتِ فقط...أصبحتِ جزءًا مني...» توقّف...لم يستطع أن يكمل عاد ينظر إليه ، وفهم...متأخرًا ، أن آدم لم يمت وهو وحيد ،كان هناك...مع كل ما أحب ، مع الشجرة التي شهدت قصته، مع النهر الذي حمل صمته ومعها...رفل.

ربما لم تكن هناك بجسدها، لكنها كانت في قلبه...حتى اللحظة الأخيرة ، هدأ الصراخ تدريجيًا ، ثم عاد الصمت ، لكنّه لم يكن نفس الصمت ، كان صمتًا أثقل...صمتًا يعرف الآن ما حدث.

مرّت نسمة خفيفة، حرّكت أوراق الشجرة فوقه، فسقطت ورقة ببطء...واستقرّت قرب يده ،كأن الشجرة نفسها... تودّعه ، أو تحتفظ به ، وفي تلك الليلة، لم يكن الغياب مجرّد غياب ، كان نهاية قصة...وبداية أثر.

أثرٍ لن يزول ، لأن بعض الحكايات لا تنتهي حين يرحل أصحابها، بل تبدأ في من بقوا بعدهم ،وبقي آدم هناك تحت شجرة المشمش، هادئًا كما لم يكن يومًا حاملًا في قلبه حبًا لم يختفِ، بل تحوّل إلى صمتٍ خالد ، لا يُقال ولا يموت...

صَدَرَ للمؤلفِ

صدرت للمؤلف رافد حميد فرج القاضي المؤلفات الآتية :

1- موسوعة الحقائق الساطعات ، كتاب في علم النسب، الطبعة الأولى، 2013 م ، مطابع المستقبل ، بيروت – لبنان.

2- الحسن راية السلام ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

3- الحسين شجرة الشهادة ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2014 م مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

4- رسالة الحقوق للإمام زين العابدين والاعلان العالمي لحقوق الانسان « دراسة مقارنة » كتاب في حقوق الانسان ، الطبعة الأولى 2015 م ، مطابع دار الوارث للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

5- مملكة النور ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2015 م ، مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

6- الأحمد الخامس، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2016 م ، مطابع دار الكفيل للطباعة والنشر ، كربلاء – العراق.

7- الهاتف الأخير ، رواية ، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق.

8- أوتار الرسالة ، ديوان شعر، الطبعة الأولى، 2026 م ، مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق

9- بلاغة ما بعد القول ، ديوان شعر ، الطبعة الأولى، 2026 م
مطبعة دار السرد للطباعة والنشر ، بغداد – العراق.

المُحتوَياتُ

أوّل زهرة..... 5
اِرتباكُ الأغصان..... 15
نبضُ البداياتِ..... 25
بَوحُ الكلمات..... 34
الغيرةُ الأولى..... 41
مَسافةُ كَفّ واحدةٍ..... 52
امتحانُ القلب..... 60
الغيابُ حضورًا..... 70
الحُبُّ لَا يَمُوتُ..... 77
صُرَاخُ الصَّمتِ..... 87
غيمةُ الشجرةِ..... 95
عطرُ اللهفة..... 106
الأوراقُ المتساقِطة..... 115
رَبِيعٌ لَا يَعُود..... 127
حِكايَةُ حُبّ..... 135
الأفق الجديد..... 144
نورُ الغدِ..... 152

على ضفاف ما تبقّى..... 159 .
صَدَرَ للمؤلفِ..... 173 .
المحتوَياتُ..... 175 .